جرمينال

اميل زولا



روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العــــدد ١٩٧ * مايو ١٩٦٥ * محرم ١٣٨٥

No. 197 — Mai 1965

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما ـ ثمن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

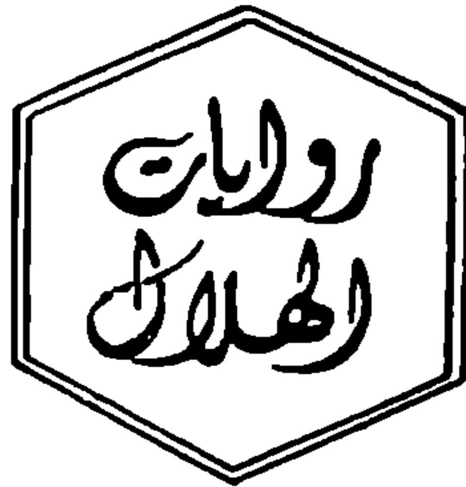
قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا ـ فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا ـ فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ـ وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة .

سعر البيع للجمهور : قطر والبحـــرين ٣٢ آنة ، ليبيا بنغازى ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر د ١٢٠ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)



مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

جرمينال

بقلم

اميل زولا

ترجمة وتلخيص

سعد مكاوي

تقـــديـم

كان « اميل زولا » فى صميمه جمهوريا معتدلا ، ولم تكن السياسة تعنيه كقاعدة لعمله الأدبى .. لكنه كان انسانا صادقا مع نفسه ، ومؤمنا بان لكل عصر فنه ، وان على كل فن جديد ان يغمر جذوره فى تربة عصره ..

و « جرمينال » عمل ادبى جليل يعتبره الكثيرون من النقاد قمة اعمال هذا الكاتب الكبير الذى حرك اعماق عصره ، وكان زعيم مدرسة ادبية كبيرة ، ورائد آفاق جديدة ، والمصور الذى لا يجارى للجماعات فى عصره . ورغم القسوة والمرارة التى تفيض بها صفحاته الغزيرة ، فان عمله الادبى كله يشهد بانه الأديب الذى التزم كل ما يلتزمه رجل العلم – وهو يقوم بتجربة معملية – من موضوعية وامانة دقيقة ونزيهة ، كى يقيم دعائم عمل ادبى ثورى ، كما يشهد بانه آمن دائما بمستقبل الانسانية ، ومجد فرحة الحياة وعمل الانسان ، وربط الادب بقضية المستقبل

ولاول مرة فى تاريخ الادب ، ومن تصوير كاتب جمهورى لا اشتراكى ، لم يكن « البطل » فى رواية فردا او افرادا ، بل كان بطلا جماعيا هو جمهور عمال المنجم ، ولاول مرة ينهض كاتب ليسم بالحديد المحمى مجتمعه الذى يسمح بمثل هذا الظلم ، مما يجعل « جرمينال » التى صور فيها اضراب عمال المناجم فى احد اقاليم فرنسا احتجاجا على مظالم الشركة المستغلة عملا فريدا فى الادب الفرنسى ، كما انه فريد فى انتاج « زولا » نفسه

وقدم زولا (١٨٤٠ – ١٩٠٢) لهذا الموضوع الذى لم يعالجه الادب قبله بقوله : « اردت بروايتى جرمينال ان تكون دراسة بيئة وفى الوقت نفسه تحليلا اجتماعيا ، واريد منها ان تتنبا بالمستقبل وتثير المسالة التى ستكون اهم مسائل القرن العشرين ... »

واذا كان قد آثر ان يظل محايدا ازاء كل الطبقات الاجتماعية التى يدرسها ويشرحها ويعرضها ، فان عداءه واضح لكل المستغلين والجامدين والمتحذلقين والامخاخ الفارغة والقلوب الجافة .. اذا كان يقول : « ليس هدفى ان اقيم او ادافع عن سياسة او عقيدة ، فانى مجرد ملاحظ ومحلل ، بغير موعظة .. واذا كان واجب روايتى جرمينال أن يكون لها نتيجة ، فستكون هذه هى النتيجة : قول الحقيقة الانسانية ... والحرية متروكة بعد ذلك لمن يريد استخلاص النتائج من عملى » فلقد استطاع بمنهجه هذا وبحبه للانسان وللحرية ، خلال ربع قرن ، يوما بعد يوم ، وطوبة بعد طوبة ، ان يقيم أحد الصروح العملاقة فى الأدب الانسانى ...

لقد تسلم « المنهج العلمى » الذى يدرس كل الناس فى البيئة التى يتحركون فيها دراسة منهجية ، والذى يجعل مهمة الروائى « الواقعى » شبيهة بمهمة العالم « الطبيعى » ، اى قائمة على الملاحظة والاستقصاء والتحليل والتصنيف ، تسلم هذا الاتجاه الذى كان قد بدأ يتضح فى عصره ، وطبقه فى رواياته بقوة ذاتية تركت اثرها فى فن الرواية فى العالم ، وكان هو الاديب الذى ميز الملامح النوعية لعصره وفهمها ، وادرك العناصر الجديدة التى تبزغ للأدباء من معامل العلماء ومن قوانين الانتخاب الطبيعى وحقائق الوراثة والكون كله ، كما آمن بأن القوانين العلمية التى تحدد ماساة الانسان وتفسر انينه ودمه النازف تأخذ مكان قدرية القدماء وقواعد التراجيديا اليونانية التى تستلهم غضب الآلهة

لقد كف الانسان عن أن يكون لغزا .. لقد مزق العلم كل الحجب ، فليتبعه الادب .. على الكاتب ان يستخدم قلمه كالمبضع ، يرخى العنان لخياله ، بل باحثا ومستقصيا ومبشرا !

بهذه الروح ، وهذا الفهم ، بدأ « زولا » تفكيره فى عمل ادبى ضخم يسيطر على النصف الثانى من القرن التاسع عشر كله ، يكون الخيط الاساسى فيه هو منطق الوراثة ، اما الاطار فهو مجتمع الامبراطورية الثانية .. وباريس التى سيصفها فى هذا العمل الكبير ليست باريس « جان فالجان » بطل رواية « البؤساء » ، فلقد مرت ثلاثون سنة من التطور الصناعى والاجتماعى غيرت الأوضاع والقيم والناس

... فى « البؤساء » ينهض « الانسان » من كبوته بالندم والتكفير الارادى ، اما انسان زولا فهو ابن عصره الشاحب الضامر الذى يهوم الكحول فيه بمهمة التسميم والابادة الجماعية ، لانه انسان الادب الذى يتكلم لغة العصر ويحترق بحميانه ويكشف آماله وعذاباته ويقود معاركه ..

وقد ظهر هذا العمل الضخم فى عشرين جزءا بعنوان واحد : « روجون ماكار ــ التاريخ الطبيعى والاجتماعى لاسرة تحت حكم الامبراطورية الثانية » ... وتوالى فى الاجزاء العشرين ظهور نفس الاشخاص فى حكايات منفصلة لكل منها نهايتها الخاصة ، لكنها مرتبطة فيما بينها برباط قوى يجعل منها «كلا» واحدا وواسعا ...

و « جرمينال » هى الدرة اللامعة فى هذا العقد الكبير الذى بداه ذاتبه وعمره ثمان وعشرون سنة ، وانتهى منه فى عامة الثالث والخمسين ...

سعد مكاوى



— ١ —

فى السهل الأجرد ، تحت سماء بلا نجوم ، فى سواد الحبر وكثافته ، كان رجل وحيد يقطع الطريق الكبير من « مارشيين » الى « مونتسو » ، عشرة كيلو مترات مرصوفة مستقيمة خلال حقول البنجر ، وافق رحب مسطح كنست لسمات رياحه الباردة فى طريقها مستنقعات واراض عارية .. وما من ظل شجرة ، بل الطريق يمضى مستقيما ، وسط عماية السماء الضبابية المظلمة ..

وكان الرجل قد غادر « مارشيين » فى نحو الساعة الثانية ، وكان يمشى بخطوة واسعة وهو يرتعش تحت سترته وبنطلونه اللذين رق قطنهما ، ضائقا بربطة صغيرة معقودة فى منديل ذى مربعات ، يضغطها بكوعه وهو دافس فى اعماق جيوبه يدين خدرهما البرد وادمتهما سياط الرياح ، وفكرة واحدة تشغل ذهنه ، الأمل فى ان تخف حدة البرد بعد شروق النهار ..

وفى الخلاء ، قبل « مونتسو » بكيلو مترين ، لمح عن شماله ثلاث نيران حمراء تتوقد وكأنها معلقة فى الفضاء ، فتردد مدى لحظة ثم لم يستطع مقاومة الحاجة المؤلمة الى تدفئة يديه ..

وكان عن يمينه سياج .. شبه جدار من الواح ضخمة تقفل سكة حديدية ، وعن شماله مرتقى معشب تعلوه سقوف غامضة فى الضباب ، رؤيا قرية ذات سقوف خفيضة ومتشابهة .. فلما بلغ منعطف طريق عاد فراى النيران بالقرب منه ، دون أن يفهم سر احتراقها على هذا العلو فى السماء الميتة ، كانها اقمار مدخنة .. ثم راى كتلة المبانى يبزغ منها قوام مدخنة مصنع ، واضواء نادرة تخرج من النوافذ المتسخة ، وخمسة او ستة مصابيح حزينة معلقة فى الليل والدخان كان يرتفع صوت تنفس ضخم من نفثات بخارية لا ترى ...

وفى استحياء العامل المتعطل الذى لا يجد مأوى ، غامر اخيرا بارتقاء المرتفع الذى كانت تتوقد فوقه نيران الفحم الثلاث ، وهناك راى عمالا يدفعون عربات فتتلقاها ظلال حية اخرى فتقلب ما فيها من الفحم بالقرب من النار ...

ودنا من احد المواقد ، وحيا عاملا عجوزا من سائقى العربات كان واقفا فى ثوب من الصوف المشغول وعلى راسه طاقية من جلد الارنب ، بينما ينتظر حصانه الكبير الأصفر – فى جمود حجرى – ان افرغ العربات الست التى صعد بها ، أما العامل الثانى فكان يعمل فى قلب العربات ببطء يتفق مع نحوله ، فهو يضغط على العتلة بيد دائمة .. وفوق هذا العمل الليلى تعصف الرياح المثلجة ، فيمر لهاثها الضخم المنتظم مثل ضربات المناجل

ورد العجوز التحية وسكت ، وهو ينظر الى الشاب الغريب فى حذر ، فبادر هذا بذكر اسمه :

– اسمى « اتيين لانتييه » ... الا يوجد عمل هنا ؟ ..

واضاءته اللهب فبدا اسمر وجميلا ، فتى فى نحو الحادية والعشرين ، متين البنيان على دقة اعضائه ...

– عمل ؟ .. لا ، لا .. امس فقط تقدم اثنان آخران .. لا يوجد شىء ! ..

وهزت العجوز نوبة سعال عنيفة خنقته ، ثم بصق فتركت بصقته اثرا اسود على الأرض المتضرجة بلون اللهب ..

وكانت العربات الست قد افرغت ، فتبعها – دون ضربة سوط – وساقاه متيبستان من الروماتيزم ، بينما تحرك الحصان وحده فى عاصف من الريح يقشعر له شعره ..

وتامل « اتيين » المكان وهو يدفىء يديه الداميتين ، وفكر فى الايام الثمانية التى مرت عليه وهو يبحث عن عمل ، واستعاد موقفه فى ورشة السكك الحديدية وهو يصفع رئيسه فيطرد ، وخروجه من مدينة « ليل » ووصوله الى « مارشيين » فى يوم السبت حيث لم يجد العمل الذى قيل انه كان مطلوبا فى مصنع الحديد ، ويوم الأحد الذى قضاه مختبئا تحت اخشاب فى فناء ورشة نجارة ، والحارس الذى طرده منها فى قلب الليل ، بلا شىء ، بلا كسرة خبز .. !

واهلن سمال حاد عودة سائق العربات ، ثم رآه يخرج ببطء من الظلمة ووراءه الحصان الاصفر يجر ست عربات جديدة ، فساله الشاب :

ــ هل توجد فبريكات فى مونتسو ؟

وبصق العجوز بصاقه الاسود قبل ان يرد :

ــ النقص ليس فى « الفبريكات » لكن الحالة سيئة فى البلد ، والناس يطردون ، والمصانع تغلق ابوابها الواحد بعد الآخر .. ربما لم تكن هذه غلطة الامبراطور ، لكن لماذا يذهب ليحارب فى امريكا ؟ .. هذا اذا لم نذكر ان الماشية تموت مثل الناس من الجوع !

وفى عبارات قصيرة وانفاس متقطعة طاب جو التشاكى ، فروى الشاب ايضا سعيه العقيم منذ اسبوع ، وقال انه يتصور الطرف وقد زحمها المتساوون والناس لا يطلبون غير الخبز .. ثم اختفى صوتاهما فى زوبعة حملت الكلمات فى زئيرها الكئيب ..

وعاد العجوز يقول ان مصنع سكر فوفيل فى مونتسو لا يزال يشتغل ، لكن مصنع سكر هوتون اجرى تخفيضا فى عدد موظفيه ، ثم بصق وتحرك وراء حصانه النعسان ..

وعندما ظهر مرة اخرى عاد الى الثرثرة :

ــ انا من مونتسو واسمى « بون مور » (الموت الطيب !) .. انتشلونى ثلاث مرات من قاع المنجم وراوا انى لا اريد ان اموت فدعونى « الموت الطيب » على سبيل الضحك !

كانت النار الآن تضىء شعره الأبيض النادر فى راسه الضخم ووجهه الساكن الشاحب الأغبر ، المبرقش ببقع مزرقة ..

كان ضئيلا .. عنقه كبير ، وذراعاه طويلتان ، تسقط منهما يداه الى مستوى ركبتيه ..

ومثل حصانه الذى يظل فى وقفته جامدا دون ان يبدو عليه انه يعانى من الرياح المعولة ، كان الرجل يبدو من حجر لا يمسه البرد ولا الزوابع المصفرة فى اذنيه ...

ــ هل تشتغل فى المنجم منذ وقت بعيد ؟

ــ آه ! نعم ! ... لم اكن بلغت الثامنة عندما نزلت فى المنجم ، وعمرى ثمان وخمسون سنة فى هذه الساعة ، لقد زاولت كل صنوف العمل تحت الأرض حتى شكوت من ساقى ، وقال طبيب

الشركة منذ خمس سنوات انى لم اعد اصلح للعمل « تحت » ومن يومها اسوق هذه العربات هنا ... ويقولون لى : استرح ، وأنا لا اريد ان اعتزل قبل ان ابلغ الستين ، فنال معاش المائة والثمانين فرنكا ، فانهم اذا تقاعدت اليوم يعطوننى فى الحال معاش المائة والخمسين فرنكا .. هم مكارون .. ثم انى متين ، فيما عدا الساقين .. انه الماء الذى رشح تحت جلدى من طول ما اشتغلت « تحت » ... هناك ايام لا استطيع فيها تحريك قدمى دون ان اصرخ .. !

وقطعت كلامه نوبة سعال جديدة ، وساله الشاب :

ـ وهذا يجعلك تسعل هكذا ؟ ..

فجاء الرد حركة بالراس عنيفة فى تعبيرها عن النفى ، قبل ان يعود على الكلام :

ـ لا .. لا .. كان فى البداية زكاما ، لكن العجيب هو انى ابصق اسودا .. مع انى من خمس سنين لم أضع قدمى « تحت » فان عندى من الفحم فى هيكلى ما يدفئنى الى آخر ايامى !

وسحت ذكرياته فتكلم عن أسرته التى تشتغل كلها فى شركة مناجم مونسو منذ ١٠٦ سنة ، الصغار بعد الكبار ، لصاحب العمل نفسه ... والشركة غنية وعندها ملايين ، ولم يعد احد يحصى غناها ! .. انها تضم تسعة عشر منجما وعشرة آلاف عامل ، وتستخرج كل يوم خمسة الاف طن من الفحم ، وتملك سكة حديدية تربط جميع المناجم وورشا عديدة ... والمدير العام هو السيد « هينبو » ..

ـ هذا موظف ، لكن لمن كل هذا ؟

ـ لمن كل هذا ؟ .. لا يدرى احد ! ... انه لناس ! ...

واكتسى صوته وهو يقول هذا بمسحة من خوف دينى الطابع ، اما لو كان قد تكلم عن محراب عزيز المنال يستتر فيه الاله المتخم الذى صلت له اسرته اكثر من قرن ، وقدموا القرابين من لحومهم دون ان يكونوا قد رأوه مرة ! ..

وتحرك الحصان فاختفى العجوز وراءه ، وظل العامل الثانى مقلوما امام النار وذقنه مدفونة بين ركبتيه ، محدقا بعينيه الكبيرتين المطفئتين فى الفراغ ..

ولا فجر يشق بياضه السماء الميتة ، وليس هناك الا منجم « فورو » هذا الرابض كالحيوان الشرس النهم ليفترس العالم ، وهو يتنفس لاهثا فى هضمه لما ياكله من اللحم البشرى ...

— ٢ —

في وسط حقول القمح والبنجر كانت المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال تنام تحت ليلها الاسود ، كتل أربع كبيرة من بيوت صغيرة متساندة ، هندسية ومتوازية ، كأنها ثكنة او مستشفى ، تفصلها الشوارع الثلاثة العريضة المقسمة الى حدائق متساوية

وفى بيت العامل « ماهوى » فى رقم ١٦ من الكتلة الثانية ، لم يكن يتحرك شيء قبل أن تدق ساعة الحائط فى الطابق الاول أربع دقات ، فكل من فى البيت كان منسحقا من التعب ونائما وفمـــــه مفتوح ..

لكن « كاترين » كانت بحكم العادة أول من تنبه من خلال السقف الى الدقات الاربع ، فجلست فى مرقدها واوقدت شـــــمعة نشرت ضوءها فى حجرة مربعة تملؤها اسرة ودولاب ، ومنضدة وكرسيان ، وملابس معلقة فى مسامير ، وجرة موضوعة فوق البلاط بالقرب من حوض فخارى أحمر للاغتسال .. وفى السرير الايسر « زخارى » ابن الاسرة البكر ، وهو شاب فى الحادية والعشرين ، وأخوه الصغير « جانلان » الذى يتم عامه الحادى عشر .. وفى السرير الايمن طفلان هما « لينور » فى سنتها السادسة و « هنرى » فى سنته الرابعة ، وهما ينامان أحدهما فى ذراعى الآخر .: بينما كانت « كاترين » تقتسم السرير الثالث مع أختها « الزير » الهزيلة بالنسبة لاعوامها التسعة ، ذات الحدبة فى ظهرها .. ومن باب الحجرة المفتوح كان يتبدى صحن السلم والملحق الذى يشـــغله الاب والام بسريرهما الرابع ، ويلصقان به مهد آخر ذريتهما « استيل » التى لم تكد تبلغ ثلاثة أشهر ..

وكانت « كاترين » فى عامها الخامس عشر . لكنها ظلت تتمطى فى إعياء وهى جالسة فى فراشها حتى وصلتها من بسطة السلم همهمة أبيها التى ترميها بالكسل ، فمشت بقميصها حـــــافية القدمين فى

الصحرء . وعندما مرت امام سرير الصغيرين ردت الغطاء فوقهما ، عل من كانت « الزير » الحدباء تستدير وهى مفتوحة العينين لتاخذ المان الدافىء الذى تركته اختها الكبرى ٠٠ وامسكت « كاترين » اماما الكبير « زخارى » من كتفه وهزته وكشفت الغطاء وهى تضحك من ولدين يتخبطان ويلوكان الشتائم وسيقانهما عارية ٠٠ وجلس « زخارى » النحيل وفي وجهه الطويل طابع الاسرة كلها من الشحوب الادمى . اما « جانلان » فقد وثب وعضها فى ثديها الايمن . فحبست الصرخة وشتمت الولد وهى تضعه على الارض ٠٠

وعند حوض الاغتســـــال انفجر شجار آخر بين الاخت وأخويها ، وطارت «مصان النوم بلا حياء ، وبالسهولة المطمئنة لقطيع من كلاب ...هرة نشأت معا ٠٠٠٠

ومثل اخـــويها لبست « كاترين » بنطلون عامل المنجم وسترته وصارت لها هيئة رجــل صغير ، ولم يتبق لها شىء من جنســــها غير ... الردفين الخفيف ٠٠ وذكروا جدهم « الموت الطيب » الذى يعمل الليل وينام بالنهار ، ولم يكن يبرد سريره . اذ كان فيه دائما مـــن ...هم شخيره !

ومن وراء الحائط وصلت ضجة ، فلقد قضى تقتير الشركة انتكون الجدران بين هذه المساكن رقيقة تخترقها الهمسات . فكانوا يعيشون من طرف المساكن الى طرفها الآخـــــر والكوع فى الكوع ، فلا شىء من الحياة الخاصة كان يظل مستورا ، حتى عن الاطفال ٠٠٠٠

وقالت البنت عندما سمعت تلك الضجة وراء جدار الجار :

ـ هذا « ليفاك » ينزل ، فــلا يلبث « بوتلو » أن يذهب الى مــدام « ليفاك » !

كل صباح كانوا يتسلون هكذا بالثالوث . الزوج والزوجة والعامل الاعزب الذى يسكن عندهما ، والذى يشتغل ليلا ويملأ البيت نهــارا ، عندما يكون الزوج فى العمل ٠٠٠٠

وعادت « كاترين » تقول :

ـ هذه « فيلومين » تسعل !

وكانت فى هذه المرة تتكلم عن ابنــة « ليفاك » الكبرى التى لم تتم الخامسة عشرة حتى كانت قد صارت عشيقة « زخارى » ولها منه حتى الآن ولد وبنت ، وهى ضعيفة الرئتين ٠٠٠٠ والناس كلهم يعرفون !

صحت الاسرة كلها الا الام لم تبرح فراشها ، ولم يكن يبدو منها من تحت الغطاء غير وجه مستطيل بملامح كبيرة وجمال ثقيل غيرته تسع وثلاثون سنة من حياة البؤس ، وسبع ولادات ..

ونزل الاب « ماهوى » وولداه « زخارى » و « جانلان » فوجدا « كاترين » منشغلة باحياء النار فى الموقد الحديدى ، وكانت نفاية الفحم الصلب التى توزعها الشركة تشتعل بصعوبة فى صالة واسعة تشغل الطابق الارضى كله ، بها بوفيه ومائدة وكراسى وعلى جدرانها صورة الامبراطور والامبراطورة - وهى ايضا هعطاة من الشركة - وصور جنود وقديسين ، والساعة ، وهناك باب آخر بالقرب من باب السلم يفضى الى القبو ، ورائحة بصل مطبوخ محتبسة تسمم الهواء الراكد المثقل برائحة الفحم ..

واستطاعت البنت بقطعة من الخبز وجبن ابيض وقليل من الزبد ان تعد الشطائر الاربع التى يحملونها معهم الى المنجم لتكون «تصبيرة» الساعة العاشرة ، وقد أعدتها بعدالة متزمتة ، من الشطيرة الكبيرة الخاصة بالاب الى الصغيرة الخاصة بالولد « جانلان » .... وفى عجلة ابتلع الاربعة قدرا من الحساء بعد أن تركت البنت فوق زاوية الموقد نصيب الجد ، حتى يجده عند عودته فى الساعة السادسة ساخنا ..

وتناول كل منهم بعد ذلك حذاءه الخشبى من تحت البوفيه ، وأدخل فتلة الزمزمية فى كتفه ، ثم حمل « التصبيرة » فى ظهره بين القميص والسترة ....

وخرجوا ، الرجال اولا ، ثم البنت ، لتطفىء الشمعة وتدير المفتاح فى الباب ..

وكانت الابواب فى محلة العمل قد فتحت وتدفقت منها فى الليل خيوط سوداء من العمال ، وبرز من البيت المجاور « ليفاك » من ابنه « ببير » وهو صبى فى الثانية عشرة ، وصديق كبير لـ « جانلان » ....

وانطفات الانوار وعاد الى النوم كل شىء فى البيوت ، النساء والاطفال ، فى سرر صارت الان اوسع ....

ومن القرية الى المنجم انطلق تحت الزوابع موكب بطىء من ظلال ترتعش من البرد وتتراخى على طول الطريق فى خطى قطيع ..



ومثل اخويهـــا لبســت
« كاترين » بنطلون عامل
النجم وســترته وصارت
لها هيئه رجل صــــغير

— ٣ —

— اليسوا هنا فى حاجة الى عامل ، لاى نوع من العمل ؟

كان العمال عند هذا السؤال يهزون رءوسهم ويطلبون من «اتيين» ان ينتظر قدوم « الاسطى دانسايير » .... وكانت اربعة مصابيح قوية مثبتة عند مدخل المنجم تلقى نورها كله على الآبار والروافع واقفاص النزول الى الاعماق .. أما سائر البهو الفسيح كانه صحن كنيسة ، فكانت تتحرك فيه ظلال الرجال وعربات لا تهدأ حركتها فوق القضبان وآلة ضخمة فى صالة عليا وراء البئر ، جالسة فى شموخ فوق قاعدتها المبنية ، مبرقة بفولاذها ونحاسها ، هادرة بقوة اربعمائة حصان ، وقد وقف العامل الذى يخدمها مصغيا الى رنين الاشارات ، دون أن يرفع بصره عن اللوحة الموضحة لسير العمل ، حيث كانت البئر بطبقاته المختلفة ممثلا بخط راسى تقطعه قطع من الرصاص معلقة فى خيوط ، ترمز الى الاقفاص ..

وكلما هبط قفص بحمولته من العمال الى بطن الارض دارت البكرتان الضخمتان اللتان يلف حولهما السلكان الفولاذيان فى الاتجاه العكسى بسرعة مذهلة ، فتغوص الاقفاص وتعود فارغة ومليئة، والآبار تبتلع الرجال على لغمات من عشرين أو ثلاثين ، والقفص الحديدى يصعد كل حين من الظلمة ، بهدوء حيوان ليلى ، بطوابقه الاربعة التى يحتوى كل منها عربتين مليئتين بالفحم ، ويخرج منه عمال ليدخله آخرون .. وكان العمال اذا دخلوا فى العربات الفارغة ينحشرون فيها ثم يصدر الامر من مكبر الصوت ، فيرتفع نعير أصم ، ويهتز حبل الاشارة أربع مرات لاخطار العالم التحتى بهذه الحمولة الجديدة من اللحم البشرى ، ثم ينتفض القفص ويغوص فى صمت ، ساقطا مثل الحجر ..

وسأل « اتيين » عاملا كان ينتظر بالقرب منه فى نعاس :

- هل هو عميق ؟ ..
- ٥٥٤ مترا ، ولكن هناك اربع مصاطب تقع الاولى منها على عمق ٣٢٠ مترا ..

فاندفع « اتيين » خارجا فى خوف مبهم ، فلقيته عند مبنى المراجل المستعرة جماعة اخرى من العمال مقبلة على المنجم ، مكونة من أسرتى « ماهوى » و « ليفاك » .... وعندما لمح « كاترين » بهيئتها الغلامية الهادئة التى لا تشى بجنسها ، سالها :

- قل لى يا زميل ، اليسوا فى حاجة هنا الى اى عامل ، لاى عمل؟..

نظرت اليه مندهشة ، لكن أباها تكلم عنها فى شيء من العطف على هذا العامل المتعطل الباحث عن اى عمل .. لا ، ليسوا فى حاجة الى احد .. الاحوال صعبة .. وانتهى الحديث القصير عندما تكاثر العمال حول البنت « موكيت » بنت الثامنة عشرة التى تتفجر سترتها بصدرها وبنطلونها بعجزها ، وكانوا كما جرت العادة معها يداعبونها بخشونة مالوفة . فهى معروفة بانها تنعم بوصال أى محب ، وكل المنجم مر بها ، وسط حقول القمح فى الصيف أو لصق حائط فى الشتاء .. !

لكن المرح تلاشى عندما عرف « ماهوى » أن زميلتهم فى العمل « فلورانس » لن تاتى ، لانهم وجدوها على سريرها متخشبة .. وكانت « فلورانس » زميلة « كاترين » فى العمل ضمن فريق « ماهوى » الذى يضم ايضا « زخارى » و « ليفاك » وعاملا آخر اسمه « شافال » ، فصاح « ماهوى » فجاة طالبا من « كاترين » أن تاتيه بذاك الشاب المتعطل المتسكع أمام مبنى المراجل .. على حين اندفعت موجة من العمال خارجة من البئر ، وتاهب الجدد للنزول وفيهم العلامان الصديقان « جانلان » و « ببير » وبنت ناحلة اسمها « ليدى » فى سنتها العاشرة ، وأمامهم «موكيت » السمينة تصرخ فى السلم المظلم وتتوعد « الاطفال القذرين » بالصفع اذا هم قرصوها .. !

ولحقت « كاترين » بالشاب الغريب عند المراجل وضحكت عندما فهمت من رده الشاكر عليها انه لا يزال يحسبها ولدا ، وعادت به الى ابيها الذى حصل له على اذن التشغيل ، مقابل فرنك ونصف فى اليوم .... وأعطوه غطاء جديدا للراس وجاروف « فلورانس » الراحلة

ومصباحا ، ثم لم يلبث أن هوى به القفص مع الآخرين فى تلك الظلمة الفاغرة ..

ها هى ذى الاعماق السوداء ، وها هو ذا فى القفص مع الاخرين يمر بطبقات المنجم مرور الريح الخاطفة ، فلا يرى منها الا خطفات سريعة تكشف له كهوفا يضطرب فيها رجال مثله ، ثم فى الحال يعود السقوط السريع ..

وأخيرا توقف القفص فى قعر المنجم على مسافة ٥٥٤ مترا من سطح الارض ، بعد أن استغرق هذا النزول دقيقة واحدة ! ..

ومع زملائه الجدد دخل قاعة منحوتة فى الصخر تنيرها ثلاثة مصابيح ضخمة وفيها عمال يدفعون عربات مفعمة بالفحم المقطوع من صلب الارض ، خارجة من أربعة سراديب فاغرة أفواهها ..

وانفصل العمال الهابطون الى جماعات ودخلت كل جماعة الىأعماق خرق من هذه الخروق السوداء ..

وهنا علم العامل الجديد ان امام جماعته مسيرة كيلومترين قبل ان يبلغوا عملهم فى بطن السرداب ....

وبلا كلمة ، وعلى ضوء المصابيح الصغيرة فى الايدى ، ذهبوا الواحد بعد الآخر لتتلقاهم من أعماق السرداب كل حين زمجرة آتية من بعيد كانها زوبعة مقبلة من أعماق الارض ، ثم يثقب الظلمة ضوء يجعلهم يلتصقون بالجدار مترينين حتى يمر حصان يجر قطارا من العربات.. وفوق العربة الاولى كان الصبى « ببير » جالسا بينما كان صاحبه « جانلان » يجرى حافى القدمين وقبضتاه معتمدتان على حافة العربة الاخيرة .. وصارت مفارق الطرق غير مستوية ولا أمينة ، حتى بلغوا « العرق » الذى فيه عملهم ، وهنالك كان السقف خفيضا يضطرهم ان ينكسروا تحته نصفين ، والماء فى الارض فوق كعوبهم .. !

كان اسم هذه المنطقة « جحيم المنجم » ، وكان قد سبقهم اليها زميلهم « شافال » وهو طويل نحيل قوى الملامح فى عامه الخامس والعشرين ، فسأل بازدراء عندما راى الزميل الجديد :

— ما هذا ؟ ..

وعندما روى له « ماهوى » الحكاية كان رده من بين أسنانه :

— اذن فالصبيان ياكلون خبز البنات !

وتبادل الشابان نظرة مشتعلة بذلك الحقد الغريزى الذى يتوقد فجأة ، لكن العمل بدأ فى الحـــال وانطلقت هذه الحشرات الآدميـة تقرض الارض .....

ومن ضيق المكان التصق « اتيين » بزميلتـــه وهما يتحــركان ، لهمس فى ذهول :

ـ أنت اذن بنت ؟ ..

فاجابته « كاترين » فى مرح :

ـ حقا ! كيف عرفت هذا ؟!

كان عملهما ـ هو وهى ـ مقصور على حشو العربات ودفعها ، أما الاربعة الآخرون فقد تمددوا بطول عرق الفحم بين السقف وجـــدار السرداب ، بحيث لا يملكون التحرك الا بدفعات من الكوع والركبة ، راقدين على جنـــوبهم ، وأعناقهم ملتوية واذرعهم مرفوعة وفى كل يد معول قصير النصل ....

وكان الفحم الذى تقطعه معاولهم يتهاوى على بطونهم ومن خـــلال افخادهم ، فى جو من الحرارة والرطوبة ولهاث الصـــدور وهمهمة التعب المضنى ..

وكلهم صاروا ســـــودا تحت تراب الفحم الناعم الذى يذوب فى عروقهم ..

وعلمت البنت الولد كيف يستخدم جاروفه ليملأ عربته ، بضربات صغيرة موزونة من الجاروف ، منتظمة وسريعة ، ثم كيف يدفع العربة المليئة ستين مترا ، بكل عضلات جسمه .. وتبعها وهو يحـــاول أن يقلدها فى مشيتها على أربع ، كحيوانات السيرك القزمة ....

وفى الساعة العاشرة راحة قصيرة لتناول « التصبيرة » فنزلوا من جحورهم واقعوا ـ الكوعان فى الجنبين والاليتـــان على الكعبين ـ فى ذلك الوضع المعتاد لعمال المنـــاجم ، الذى يحتفظون به حتى خارج المنجم .. لكن « كاترين » ظلت واقفة بالقرب من الزميل الجديد الذى كان قد تمدد بعرض القضـــبان مـــكدودا ، وظهره فوق القضيب ، وسألته وفمها ملء وطعامها فى يدها :

ـ الا تشاركنى ؟ ..

ولم يثنها قوله انه ليس جائعا ، فاستمرت فى مرح :

ـ انى لم اقضم الا من هذه الناحية فقط ! ..

وقسمت لقمتها نصفين واعطته نصيبه ثم رقدت الى جانبه باطمئنان ، على بطنها ، وذقنها فى احدى يديها وهى تاكل بالاخرى فى أناة ، ومصباحاهما بينهما ، ثم ابتسمت وقالت وهى تتامل صاحبها :

ـ لماذا طردوك من سكتك الحديدية ؟

ـ لانى صفعت رئيسى ..

ثم أردف مفسرا :

ـ يجب ان اقول انى كنت ثملا . وانى عندما اشرب اصير مجنونا واحس الحاجة الى ان آكل رجلا ، ثم بعد ذلك اظل يومين مريضا ..!

ـ ينبغى اذن الا تشرب ... أين تعيش امك ؟

ـ غسالة فى باريس ...

وذكر اهله السكيرين وامه التعسة وطفولته الشقية . لكن زميلته سالته وهى ترفع سداد زمزميتها :

ـ اتريد أن تشرب قهوة ؟ ..

ولم تعبا برفضه ، بل نهضت على ركبتيها ومدت له زمزميتها فرآها قريبة منه كل القرب فى نور المصباحين ، ووجد لها الآن وهى تحت تراب الفحم الناعم فتنة فريدة .. وسالها عن عمرها فغضبت عندما توقع ان تكون بنت اربع عشرة سنة .. انها فى الخامسة عشرة ، ولكن البنات هنا بطيئات النمو .. وراحت تقول له كل شىء .. دون قحة ولا حياء . وكانت لا تجهل شيئا عن الرجال والنساء ، تلك الطفلة العذراء .. قصت عليه حكايات فظيعة عن « موكيت » السهلة ، بصوت هادىء مرح .. فسالها ان كان لها هى ايضا عاشق ، فاخذت تداعبه قائلة انها لا تريد ان تعصى امها ، وان كان ذلك سيحدث حتما فى يوم من الايام ، ذلك أن فى الوسع دائما العثور على عشاق عندما يعيش الجميع معا ، أليس كذلك ؟ .. ثم ان هذا لا يضر احدا ، وما من احد يقول شيئا ..

وفجاة ظهر « شافال » مندفعا نحو « كاترين » فتناولها من كتفيها وقلب راسها وهى جالسة وسحق فمها تحت قبلة عنيفة ، وفعل ذلك فى هدوء وعدم اكتراث بوجود الشاب الاخر ..

كان فى هذه القبلة استيلاء غيور على مركز خاص بالنسبة للبنت ، لكنها صرخت فيه ان يتركها ؛ فذهب عنها دون أن يقول كلمة ..

واندفعت هى تؤكد انهـا لم تكذب وان « شـافال » هذا ليس عشيقها ، وكانت فترة الراحة قد انتهت فانقض الجميع من جديد على العمل ، خاضعين لفكرة ثابتة هى ان يتموا شحن أكبر عدد من العربات ، فالاجر يدفع بالعربة ..

ولم يلبثوا كلهم ان اخذهم العمل فى جذبته المستغرقة ، فما عادوا يحسون الماء الذى يرشح تحت جلودهم ويورم أعضاءهم ، ولا التقلصات العضلية الناشئة عن اوضاع العمل المغتصبة ، ولا الظلمة الخانقة التى تخلو فيها رئاتهم من الانفاس وهم يدقون ويدقون ... وكانهم سيظلون يدقون فى الاعماق الى الابد !



- ٤ -

كان يطيب لهؤلاء المتصببين عرقا فى اقبية الصمت السوداء ان يهاجموا كبار الرؤساء فى الشركة ؛ لكن « ماهوى » كان يقلق ويتلفت حواليه وهو يوصى زملاءه بالحذر ، فحتى فى هذه الاعماق السحيقة كانوا يخشون « الآذان » ، كما لو كان فحم الساهمين ، وهو مايزال فى العرق الدفين تحت الارض ، له آذان تسترق السمع !

وكانوا فى ذلك اليوم يتهامسون بعلاقة « الاسطى دانسايير » بزوجة العامل « بييرون » عندما غضب « ماهوى » وقد غشيه الخوف :

ـ من اراد ان يصيبه اذى فلينتظر حتى يكون وحده !

وجاء من الممر العلوى وقع خطى ، ثم ظهر المهندس « نيجرل » الذى يدعوه العمال فيما بينهم « نيجرل الصغير » ومعه « دانسايير » فغمغم « ماهوى » :

ـ اما كنت اقول لكم ! . . انهم دائما يطلعون من تحت الارض !

وكان المهندس « بول نيجرل » شابا فى السادسة والعشرين ، وابن اخ للمدير « هينبو » ، وكان فى عينيه الحادتين ذكاء مستريب يتحول الى سلطة قارصة فى علاقاته مع العمال ، وكان لابسا مثلهم ، ومثلهم كان مغطى بتراب الفحم . . وهو يبدى فى العادة شجاعة من لا يهمه ان تتكسر عظامه ، ويقتحم الاماكن الوعرة ، بل كان ـ حتى يلزم العمال احترامه ـ سباقا الى مواطن الخطر عندما يحدث انهيار او التهاب غازى . . . اما « دانسايير » فكان بلجيكيا غليظ الوجه وله انف كبير شهوانى . . .

وتساءل المهندس عن العامل الجديد الذى بدا عمله اليوم ورفع مصباحه وتامل « اتيين » دون ان يكلمه . .

واخيرا قال مخاطبا رئيس العمل :

ـ لا احب ان نلتقط المجهولين من الطريق ؛ فلا تعد لمثلها !

واخذ بدرس السقف والعوارض الخشبية التى يصنعها العمال لدعمه ، وصاح فجاة :

ــ بهذا السقف لن تخرجوا من هنا أحياء !

فرد « ماهوى » بهدوء :

ــ السقف متين ! . .

ــ بل هو فى حاجة الى مضاعفة دعاماته ، وفى الحال !. . . ضاعفوا الخشب ، أتسمعون ؟

وتهجم امام العمال الذين كانوا يناقشونه قائلين انهم مطمئنون الى سلامتهم . .

ــ عندما تتحطم رءوسكم ، فهل انتم الذين تتحملون النتائج ؟ . . . بالمرة ! . . . الشركة هى التى سيكون عليها ان تدفع تعويضات ، لكم ولنسائكم !. . . اكرر لكم اننا نعرف حقيقتكم ! . . . انكم من اجل الحصول على زيادة عربتين فى آخر النهار مستعدون للمخاطرة بحياتكم !. . .

كبت « ماهوى » الغضب الذى كان يتعاظم فى نفسه وقال مرة اخرى برزانة :

ــ لو كانوا يدفعون لنا كفاية لكان دعمنا للسقف احسن !

هز المهندس كتفيه وختم كلامه :

ــ اندركم بان مجموعتكم عليها غرامة ثلاثة فرنكات !

وثارت نفس « اتيين » وفار دمه . . . امن الممكن ان يقتل الانسان نفسه فى مثل هذا العمل الفظ وفى هذا الجحيم المميت ، ثم لا يكسب حتى الثمن الزهيد لخبزه اليومى ؟

ومر الوقت ، وانتهت المجموعة من تثبيت الدعامات الجديدة ، ثم انطلقوا حاملين ادواتهم فى طريق العودة الى سطح الارض . .

ومشت « كاترين » امام « اتيين » وهى تتلفت نحوه وكأنها تدعوه ان يخرج من جموده ويكون لطيفا ويضاحكها ، فما كذبت عليه وماهى متشوقة الشباب الاخر . . وكان يزداد ارتعاشهم كلما اقتربوا من المدخل ، حتى بلغوا البهو الذى يشكل القاعدة السفلى لقفص الصعود وهم غارقون فى عرقهم فى تيار الهواء المثلج . . .

وهناك كان عمال « الوردية » الاولى يتجمعون ، الرجال والنساء

والاطفال . ثم ظهر الولدان « بيير » و « جانلان » مع قطار يجر عرباته حصان ابيض مرتعد على أرجله الشائخة ، فلاطفته « كاترين » وهى تكلم عنه زميلها الجديد .. انه الحصان « معركة » عميد المنجم الذى اشتغل فى هذه الاعماق عشر سنين ، وشغل فى الاسطبل الكبير المحفور تحت الارض نفس المكان ، وقام بنفس العمل طوال تلك المدة على طول الممرات السوداء دون ان يرى ضوء النهار مرة واحدة ..

وكان مظهر الحصان يدل على انه يقضى هناك فى العالم السفلى حياة حكيمة مذعنة لا تكاد تذكر الشمس ولا الطاحونة التى ولد فيها وسط الخضرة اليانعة ..

وظل العمال يتكومون عند باب القفص حتى اقبل المهندس والاسطى عائدين من التفتيش .. وعادة النظام جعلت العمال يصطفون ، بينما يخترقهم المهندس بلا كلمة !

ودخل المهندس والاسطى الى القفص ، وشد الحبل خمس مرات ، اشارة الى ان « اللحم » الطالع من النوع « الكبير » كما كان يقال عن الرؤساء ، وانطلق القفص وسط صمت عابس صاعدا فى خفة ...

وفى القفص الذى كان يعيده الى الدنيا كان « اتيين » قد قرر استئناف زحفه الجائع التائه ، فأولى له ان يموت فى الحال من ان يعاود النزول الى قاع ذلك الجحيم الذى لا يكسب من ينزله قوته .. وأولى له ان يذهب قبل ان يختنق هنا احد الرؤساء !

وعند تلقاهم النور اعشى كالعادة ابصارهم ، ودعا « زخارى » صديقه « موكيه » شقيق البنت « موكيت » الى السهرة معه فى « البركان » ملهى بلدة مونتسو ، ثم ظهرت اخته فناولها لطمة على خاصرتها تعبيرا عن الحنان الاخوى .. ! لكن « شافال » كان قد عاد ثائرا من دراسة لوحة الاجور فى مكتب الصراف ، حيث علم انهم خصموا من جهد الفرقة أجر عربتين ، بزعم أن الاولى لم تعبأ بالكمية النظامية والثانية لم يكن فحمها نظيفا .. وصاح « شافال » وهو يوجه نحو « اتيين » نظرة تكمل فكرته :

ـ هذه نتيجة انضمام الكسالى الذين يستخدمون اذرعهم كما يستخدم الخنزير ذيله !

وعدل « اتيين » عن الرد بقبضته ، مادام راحلا عن المكان ومن فيه

وقال « ماهوى » ليصنع السلام :

ـ لا يمكن لاحد ان يحسن العمل فى اليوم الاول ، وغدا يكون عمله احسن . .

وكانت « موكيت » فى هدوء مطمئن قد انزلت بنطلونهـــا لتجفف ساقيها فاحاط بها هذر الغلمان ، وانفجر الضحك عندما عرضـــت عليهم فجاة تعبيرها الاقصى عن الازدراء . . عجيزتهــــــا . . وكانت « كاترين » خلال ذلك تكلم اباها بصوت خفيض وتنتزع موافقته على وجهة نظرها ، فنادى « اتيين » وقال له :

ـ اسمع . . اذا لم يكن معك نقود فقد يسعنى ان احصل لك على قرش من ابة جهة ، أم تريد ان تموت قبل ان يحل موعد صرف الاجور نصف الشهرى ؟

فوقع الشاب فى حيرة ، فقد كان فى عزمه ان يطالب باجر يومــــه الهزيل ويرحل ، اما الآن فقد غلبه الحياء امام البنت التى تحدق فيه وهو يتمنى الا يكون هناك قرض آخر الامر . . وعندما رات البنت سكوته ضحكت فى سرور وشملته بنظرة صداقة سعيدة . . .

وتحركت جماعتهم الصغيرة فى طريق العودة ، فالتقوا بعمـــــال « ووردية » الساعة الثالثة فى طريقهم الى القطاع ، فالمنجم لا يكف عن ابتلاع الرجال ، وفى الليل والنهار تحفر فى صخوره الحشرات الآدمية ، على عمق مئات الامتار تحت حقول البنجر . . .

وكان الاولاد يمشون فى الطليعة ، فلما بلغ الكبار خمارة «الافتتاح» توقف « ماهوى » و « ليفاك » وقال الاول للشاب الحديث العهـــــد بصحابهم :

ـ ادخل معنا ! . .

ودخل الرجال الثلاثة الخمارة ، وانطلق الآخرون على الطــــريق الصاعد الى مجموعة البيوت

— ٥ —

خمارة « الافتتاح » تتوسط الطريق بين المساكن والمنجم ، وهى بيت من دورين مبنى بقوالب الطوب ومبيض بالجير ، وحول نوافذه براويز باللون الازرق السماوى ، وعلى لافتة مربعة مسمرة فوق الباب ، بحروف صفراء :

« الافتتاح — حانة يديرها راسنير »

وكان المكان صالة صغيرة ساطعة العرى ، جدرانها بيضاء ، وليس فيها غير ثلاث مناضد واثنا عشر كرسيا وبار خشبى ودستة من الاكواب وثلاث زجاجات من الخمر وصندوق صغير من الزنك بحنفية من الصفيح ، للبيرة ؛ ولا شيء غير هذا .. لا صورة ولا رف ولا لعبة ، الا قطعة من الفحم تحترق بهدوء فى الموقد المصقول اللامع المصنوع من الحديد الزهر ..

وشرب « ماهوى » كوبا من البيرة دون ان يطلب شيئا لزميله ، وقدم الشاب الذى معه لصاحب الخمارة .. وكان « راسنير » رجلا ضخما فى نحو الثامنة والثلاثين ، ووجهه كروى حليق وابتسامته لينة . ومنذ ثلاث سنوات كان عاملا فى المنجم ثم طردته الشركة على اثر اضراب ، اذ كان حسن الكلام متزعما لكل المطالب وطليعة للساخطين .. وعند طرده كانت زوجته — مثل كثير من نساء العمال — تدير دكانا .. فوجد المال اللازم لافتتاح الخمارة، متحديا الشركة ، وازدهر عمله وصارت خمارته مركزا للاجتماع.. واغتنى من الغضب الذى كان قد نفثه شيئا فشيئا فى قلوب زملائه السابقين ، ولم يكد يسمع ان هذا الشاب الغريب فى حاجة الى حجرة تأويه وسلفة تعينه اياما حتى نطق وجهه بالحذر الشديد وامتحن الشاب بنظرة قبل ان يقول ان حجرتيه اللتين يؤجرهما مشغولتان ...

وكان « اتيين » ينتظر هذا الرفض لكنه آلمه بالرغم من ذلك ..

ام ...ق له الان حقا الا ان ياخــذ من الصراف أجــر يومه الواحــد ويذهب الى المجهول ..

لكن « راسنير » كان يسـال « ماهوى » فى اهتمـام عن أخبـار الحم ، وعندما سمع حكاية الخصم انتفخ بغضب دموى ، وانفجر :

ـ اذا عمدوا الى تخفيض الاجور فقد ضاعوا !..

واخـذ يكرر ان الامور لا يمكن ان تسـتمر على هـذا النحـو ؛ فالبؤس زاد والمصانع تغلق والعمال يطردون ، ثم انه تلقى اخـيرا رسالة من مدينة « ليل » مليئة بالتفاصيل المقلقـة ، كتبهـا اليه « بلوشار » الميكانيكى الذى جاء الى الخمارة ذات مسـاء وتحدث الى روادها عن الازمة :

ـ ولقد رايته انت يا « ماهوى » .. اتذكره ؟

وهذا الاسم الذى ظهر فى الكلام فجاة جعل « اتيين » الصـامت يختلج ويرفع صوته :

ـ انا اعرفه ، « بلوشار » !.. كان رئيسى فى « ليل » وهو رجل مقتدر .. كثيرا ما تحدثت معه ..

هنا عاد صاحب الخمارة يفحصه من جديد وقد حدث فى وجهه تغير سريع واستلطاف مفاجىء .. والتفت « راسـنير » آخر الامر الى زوجته ـ وكانت طويلة ونحيلة ومحبة للكلام ـ وقال لها كلمـات قليلة كانت نتيجتها أن هناك فى الحقيقة حجرة رحل عنها فى الصباح من كان يشغلها ! ..

هكذا وجد « اتيين » نفسه مرتبطا بهذا الركن من الارض الذى طاف به نفسه ..

والان وفى كل يوم سيعود الى النزول فى المنجم ليتغلب ويصارع ذلك الاله المتخم المقعى الذى يقـدم له عشرة آلاف جائع لحمهم قربانا ، دون أن يعرفوه ..



- ٦ -

على مسافة كيلومترين من شرق « مونتسو » مزرعة صغيرة حول بيت كبير مربع بنى فى مستهل القرن الفائت على غير طراز ، ونم يبق داخلا فى حوزة أصحابه « آل جريجوار » من الاراضى الواسعة التى تحيط بالبيت غير ثلاثين هكتارا هى أحسن ما فيها ، على حين كان طريق الزيزفون الذى يشكل قبة خضراء طولها ثلاثمائة متر ، ممتدة من البوابة الخارجية الى بسطة السلم ، يعتبر احدى تحف ذلك الاقليم الاجرد الذى كانت الاشجار الكبيرة فيه اعلاما معدودة

وفى ذلك الصباح ، كان السيد الشيخ « جريجوار » والمدام التى تصغره بسنتين ينتظران يقظة وحيدتهما المدللة « سيسل » التى كانت قد تأخرت فى نومها .. وكانت الطباخة العجوز التى خدمت الاسرة ثلاثين سنة تعد فى المطبخ فطائر شهية من النوع الذى تحبه « سيسل » .. والوصيفة « هونورين » الشابة ــ التى التقطوها طفلة وربوها فى البيت ــ تنتظر هى ايضا يقظة « المدموازيل » التى جاءت الى الدنيا منذ ثمانية عشر عاما بعد أن يئس السيد والسيدة من الذرية ، فهما يعبدانها اليوم بكل اشواق العمر المكبوتة ..

كانت اسرة غنية يبلغ دخلها أربعين الف فرنك فى السنة ، وكانت ثروتها مستغلة كلها فى اسهم شركة مناجم مونتسو العتيدة ، وكل الاجيال السابقة من الاسرة قد عاشت فى رغد على هذه الحصة ، طول مائة سنة ، دون ان يعمل احد افرادها شيئا .. كانت هذه الاسهم هى القوة الالهية الصفات التى تهدهدهم فى اسرة الكسل وتسمنهم على موائدهم النهمة .. وكانوا فى عالمهم المطمئن بعيدين عن العالم الذى يصنع لهم ذلك الخير وعن اجيال الجياع الذين يستخرجونه لهم يوما بعد يوم ..

واخيرا صحت من نومها « المدموازيل » التى تنام اثنتى عشرة ساعة وتتلقى « تعليمها » كله فى البيت ، فتاتى مدرسة البيانو من « مارشيين » كل يوم اثنين ويوم جمعة ، كما ياتى مدرس للاداب ليحمل نزوات تلميذة طفلة النفس تقذف بكتابها من الشباك اذا لم يعجبها سؤال ..!

ووصل « دينولان » ابن عم صاحب البيت فدار الحديث عن ابنتيه « جان » و « لوسى » اللتين تحاول اولاهما ان تكون رسامة بينما الكبرى تمرن صوتها على البيانو من الصباح الى المساء ، لكن الكلام لا يلبث أن يتحول الى المناجم والارباح والخسائر . وكان « دينولان » مثل ابن عمه ، وبالوراثة ، مساهما فى شركة مناجم ... قبل ان يبيع حصته فى فترة ارتفاع اسعار الاسهم كى ... لحسابه منجما صغيرا ورثته زوجته عن احد اعمامها ، لكن هذا المنجم « جان بلوت » ظل فى حالة سيئة ، لا تكاد حصيلته تغطى نفقاته حتى بعد ان ابتلع تجديده ثمن حصة الرجل فى الشركة الام ، وقد جاء اليوم ليسال ابن عمه ان يقرضه مائة الف فرنك . لكن « جريجوار » نصحه أن يبيع منجمه المزعج للشركة الكبيرة التى ... منذ زمن على امتلاكه وتوسيع آباره وتجديد آلاته واستغلاله ..

ـ انا ابيعه ؟.. ابيعه لاولئك المركيزات والدوقات والجنرالات والوزراء ؟.. لهؤلاء اللصوص الذين لو ملكوا لانتزعوا من المرء ... قميصه ؟! ..

وكانت « سيسل » تنتظر مدرسة البيانو عندما اقبلت امراة « ماهوى » وطلبت أن ترى السيد والسيدة .. هل يدخلونها هى واطفالها « لينور » وطفلها « هنرى » ؟ هل هم فى منتهى القذارة ؟.. فليتركوا أحذيتهم الخشبية على بسطة السلم وليدخلوا .. ودخلت امراة عامل المنجم وطفلاها كالاشباح المثلوجة الجائعة ، وهى فى خوف من هذا البيت الذى تفوح فى صالته الدافئة رائحة العطر الطيبة ...

وكانت امراة « ماهوى » قد اقبلت فى طلب خمسة فرنكات ، حتى يجد الرجال عند عودتهم الى البيت ما ياكلونه ..

وفى طريقها اليهم مرت على « ميجرا » الذى يكدس فى مخزنه انواع البقالة واللحوم والفواكه والخبز والبيرة ، وقالت له فى ذل وانكسار :

ـ هذه انا يا مسيو « ميجرا » مرة اخرى !

كان سمينا ، بارداومؤدبا ،وكان قد بدأ حياته مراقبا فى المنجم ، ثم صاحب « كانتين » صغير ، ثم اتسعت تجارته بفضل حماية رؤسائه فقتل صغار تجار التجزئة فى « مونتسو » واحتكر البضائع، ووفرت له كثرة الطلب من مجموعات مساكن العمال فرصة البيع بسعر اقل من غيره ، واخذ يقرض العمال وهو نفسه فى قبضة الشركة التى بنت له بيته ومتجره ..

نظر اليها ببروده المتعالى ، فتلعثمت المراة :

ـ صحيح أننا يا مسيو « ميجرا » مدينون لك بستين فرنكا ولكنك لن تردنى كما حدث امس خائبة ، اذ يجب ان ناكل خبزا من هنا ليوم السبت ...

وعند كل عبارة توسل من المراة ، كان الرجل السمين يهز راسه رافضا فى برود ، وذراعاه معقودتان على صدره ، وكرشه بارز ..

ـ ان هما الا رغيفان يا مسيو « ميجرا » فانا لا أطلب منا ... لا شيء الا رغيفين فى اليوم !

واخيرا صاح بكل قوته :

ـ لا !..

وكانت زوجته قد ظهرت ثم اختفت مذعورة من رؤية هذه التعسة ، وهى تناشدها بعينين يلتهب فيهما الرجاء ، وكانت « مدام ميجرا » مخلوقة ضئيلة تقضى الايام عاكفة على سجل الحسابات دون ان تجرؤ على رفع راسها ، وكان شائعا انهـا تنزل عن السرير الزوجى صاغرة للعاملات ونساء العمال من زبائن المتجر ، وكان من المعروف ان العامل الذى يريد مد اجل دينه لم يكن عليه الا ان يرسل ابنته او امراته دميمة او جميلة ، ما دامت سهلة طيعة..

والآن لم يبق امام امراة «ماهوى» الا ان تقصد اصحاب المزرعة ، فاذا لم يعطوها هم ايضا ما تطلب فلترقد هى واهلها جميعا ويستسلموا ويموتوا ...

وعندما مرت فى طريقها أمام مبنى الادارة ـ القصر الذى ياتى الـ اده الكبار من باريس والامراء والجنرالات وشخصيات حكومية لاقامه مادب كبيرة فيه كل خريف ـ كانت وهى تسحب طفليها « دمى » الفرنكات الخمسة وتوزعها بين الخبز والبطاطس والبن و.ا ل من الزبد ونصف رطل من جبن الخنزير ...

ومر بها « الاب جوار » قسيس « مونتسو » وقد شمر ثوبه فى ملابسه فعل حسن التغذية يحاذر أن يبتل ، فحيته فى رجاء لكنه ام ..وقف واكتفى بأن ابتسم للطفلين العابثين فى الوحل ·· ولم تكن للام ديانة ، لكنها كانت قد تصورت ان رجل الكنيسة سوف يعطيها ...!

واخيرا وصلت المزرعة وادخلوها بعد تردد ووقفت بين طفليها ى. تلك الصالة الدافئة ، وامام سيد وسيدة ممددين فى حالة هضم و.. ممددين مريحين ·· والمبدأ فى هذا البيت ألا تكون الصدقة ..... ، فان « الفقير اذا حصل على اى نقود انفقها فى الحال فى ا.. الخمر » بل عينية ، وفى الغالب تكون صدقة « آل جريجوار » و.. شكل ملابس توزع فى الشتاء على الاطفال المعوزين .. وهبت « ..ـسل » تأمر وصيفتها « هونورين » ان تاتيها بالربطة التى فى الـ.لاب .. وفتح الطفلان عيونهما الكبيرة على بقايا الفطيرة فوق المائدة .. وانتظر الفقر والغنى وجهالوجه ..

رأت « مدام جريجوار » أن تشغل فترة الصمت القلقة حتى تعود الوصيفة بالملابس القديمة ، فسالت المراة الواقفة أمامها :

ـ اليس عندك الا هذان الاثنان ؟

ـ عندى سبعة ! ..

فانتفض السيد الذى كان قد عاد الى قراءة جريدته انتفاضه ... ـكرة :

ـ سبعة اولاد ! .. لماذا ؟ .. يا الهى !! ..

وتامل الكائنات الادمية الواقفة أمامه فى خشوعها ، والتى .رسمها الانيميا وطبعها الجوع بدمامة حزينة ، وقال للمراة :

ـ العمال ليسوا حكماء ولا يدخرون مثل فلاحينا بل يشربون و..مدينون ، وتكون النتيجة ألا يجدوا قوت الاسرة ··

قالت امرأة « ماهوى » جاهدة الا تغضب السيد :

ـ السيد على حق ، لكن زوجى انا مستقيم ، ومع ذلك فان استقامته لا تجدينا نفعا ! .. وهناك أيام ـ مثل اليوم ـ نظل فيها نقلب جميع ادراج بيوتنا دون ان يسقط منها سنتيم واحد ! ..

وكانت تريد ان تصل الى ذكر المبلغ المنشود ، فاستمرت بصوتها الرخو تفسر حتمية الاستدانة ، وانه ربما كان العمال فى الحقيقة لا يكسبون ما يكفيهم ...

فقالت السيدة متسائلة :

ـ كنت اعتقد ان الشركة تعطيكم المسكن والتدفئة ! والمراة رمت الفحم المتوقد فى المدفأة بنظرة قبل أن تتكلم :

يعطوننا فحما رديئا .. اما عن المسكن فقد تبدو ستة فرنكات فى الشهر أجرا للمسكن شيئا بسيطا ، ومع ذلك فان دفعها يكون فى بعض الاحيان صعبا .. وهكذا ، اليوم مثلا ، لو قطعونى لما حصلوا منى على شىء .. وليس معنى هذا انى اشكو ، فهذه هى طبيعة الامور ، ويجب ان نتقبلها .. وخير للانسان ان ينجز عمله بشرف فى المكان الذى وضعه فيه الاله الطيب ..

فبادر السيد يؤمن على هذا الكلام :

ـ بمثل هذه المشاعر ، أيتها المراة الطيبة ، يضع الانسان نفسه فوق الشقاء !! ..

واخيرا وصلت الربطة وفتحتها « سيسل » واخرجت منها فساتين وشيلان وجوارب حزمتها الخادمتان فى عجلة ، لان مدرسة البيانو كانت قد وصلت ، ثم دفعت « المدموازيل » الام وطفليها نحو الباب ...

هنا تعلثمت امراة العامل وهى تقول :

ـ نحن فى ضيق ، فلو ان لدينا قطعة من ذات الخمسة فرنكات فقط ...

لكن العبارة اختنقت فى عزة نفسها ، فنظرت « المدموازيل » الى ابيها فى قلق ، لكنه رفض بوضوح حاسم ، قائلا بلهجة من يؤدى الواجب :

ـ لا .. ليس هذا فى عاداتنا .. لا نستطيع ..

وابتسمت « المدموازيل » بوجه الام فقطعت من باقى الفطيرة قطعتين ولفتهما فى جريدة قديمة . واعطت اللفة للطفلين وهى تدفعهما مع ابويهما . تحت النظرات المتأثرة من أبيها وامها



— ٧ —

فى طريق العودة دخلت امراة « ماهوى » مرة أخرى دكان «ميجرا» والقت فى وجهها بياسها المستميت ، فانتزعت منه فى هذه المرة رغيفين وكمية صغيرة من البن وزبدا وفوقها الفرنكات الخمسة .. وصحيح انه افهمها انه يريد « كاترين » — عندما أوصاها ان تبعث اليه فى المرة القادمة بابنتها — لكن البنية ستعرف اذا دنت منهما انفاسه كيف تصفعه !

ورجعت الام الى البيت بما تحمل فوجدت آن ابنتها الحدباء«الزير» قد تعهدت النار وكنست الصالة ورتبتها ، كما حاولت أن تقنع الرضيعة الصارخة « استيل » التى تركتها لها أمها بالرضاعة من ثديها الطفل ، ثدى بنت السنوات التسع .. واخذت الام طفلتها الجائعة وارضعتها . ثم ذكرت فجاة انها مدينة لامراة « بييرون » بمقدار طحنة من البن كانت قد اقترضتها منها اول امس ، فاخذت الكمية ولفتها فى ورقة وخرجت حاملة رضيعتها بين ذراعيها ، تاركة العجوز « الموت الطيب » يهرس البطاطس للطبخ ، بينما يتعارك « هنرى » و « لينور » على اكل القشور الساقطة ..!

وامام الكنيسة رات زوجة المدير تطوف بضيفين هما سيد يحمل وساما وسيدة تلبس معطفا من الفراء فى زيارة لمساكن العمال ..

وقالت امراة « بييرون » لها عندما دخلت وردت لها البن :

— لماذا اتعبت نفسك ؟.. لم يكن هناك ما يستعجلك !..

كانت امراة فى الثامنة والعشرين ، سمراء بعينين واسعتين وفم صغير ، وكانت لها سمعة اجمل امراة فى المجموعة ؛ وهى لعوب فى نظافة القطة ، وصدرها محتفظ بجماله لانها لم يكن لها أبناء .. وكانت هى وزوجها « بييرون » يعيشان فى هناء بالرغم من الشائعات عن تساهله وعن عشاقها .. فلا ديون ؛ واللحم مرتان فى الاسبوع

... نظيف يرى الناظر فيه صورته فى الكسرولات .. وكان عندها ... من الشركة ببيع الحلوى والبسكويت ، فكانت تعرضها فوق ... وراء زجاج الشباك .. ولم يكن ينغص حياتها الا امها «الابروليه» ... وهى ارملة عامل مات فى المنجم ولا تكف عن الصراخ مطالبة ... ثم تصب غضبها صفعات على وجه الطفلة « ليدى » ابنة « ... » من زواج سابق ..!

... عودة امراة « ماهوى » الى بيتها دعتها جارتها الاخرى امراة « ... » ــ وام « فيلومين » عشيقة ابنها « زخارى » ــ الى فنجان ... القهوة ..

... فى هذه المرة بيتا قذرا سىء الرائحة ، ووجدت بالقرب من ... العامل « بوتلو » الذى يسكن عند جيرانها هؤلاء ، وكان عنــد ... بجهز على وجبته ، بينما وقف له بالمرصاد « اشيل » اول ... « فيلومين » الذى لم يتم عامه الثالث ، وهو ينظر الى طعــامه ... النظرة المتوسـطة الصامتة التى تكون فى عينى الحيوان الشره ، ... « السـاكن » اعماق فمه الكبير من وقت الى اخر بقطعــة ... من اللحم .. اما هى ــ امراة « ليفاك » ــ فكانت تكبره بست ... مظيمة مستهلكة ، والصدر على البطن والبطن على الفخذين ، ... لا يعرف المشط .. لقد اخذها هــــذا الفحل الذى يبلغ ... والثلاثين دون ان يقشرها اكثر مما تقشر هى خضار حسائها ، ... الذى كان يجد فيه شعر راسها .. لم يطلب منها ان تكون ... من ملاءات سريرها التى لا تغيرها قبل ثلاثة اشهر .. انها جزء ... « النسيون » داخل فى الصفقة .. والزوج نفسه كان يحلو له ان ... الحساب الجيد يوجد الاصدقاء الجيدين !

... امراة اخرى وعلى يدها طفلة في شهرها التاسع هى «دزيريه» ... « فيلومين » ، اذ كانت تؤخذ كل يوم الى امهـــا فى المنجم ... ـــــعها فوق كومة فحم .. فتكلمت المراتان فى ضرورة زواج « ... » و « فيلومين » اخر الامر .. ولم تكن ام الشاب تستعجل ... الزواج فى الحقيقة ، حرصا على اجر ابنها النافع للاسرة ، على ... ام البنت تستعجل الخـــلاص من ابنتها وطفليها اللذين ... اجرها فلا يبقى منه للام اى نفع ؟

ومن الشباك رات المراتان زوجة المدير وضيفيها يدخلون عند امراة « بيرون » ليتفرجوا على بيتها النظيف ، ثم خرجوا واتجهوا فى هذه المرة نحو بيت امراة « ماهوى » نفسها .. فاندفعت الى بيتها لتجد « الزير » منهمكة فى طهى الطعام فى رزانة ، والطفلين يمزقان كراسة فى صمت ، والجد « بون مور » يدخن غليونه فى سكون ، وزوجة المدير تفتحم الباب مبتسمة ، طويلة وشقراء فى نضج الاربعين ، وهى تبذل جهدا لتظهر بالبشاشة الملائمة ولا تكشف خوفها من اتساخ ملابسها !

وكانت زوجة المدير « مدام هينبو » تدعو من معها الى الدخول :

ــ ادخلا ، ادخلا فنحن لا نزعج احدا !.. اليس هذا ايضا نظيفا ؟.. وهذه المراة الطيبة عندها سبعة اولاد .. كل بيوتنا هكذا .. وفى كل بيت صالة كبيرة فى الدور الاول وحجرتان فى الدور الثانى وقبو وحديقة .. وهناك طبيب يزورهم مرتين فى الاسبوع .. وعندما يشيخون ياخذون معاشات بالرغم من اننا لا نحجز شيئا من اجورهم !!

ورفض الثلاثة الضيوف ان يجلسوا على الكراسى التى اندفعت المراة لتقديمها واكتفوا بامتداح البيت والثناء على جمال الطفلين ..

وكان « الموت الطيب » قد ابعد غليونه عن فمه باحترام ، لكنه اخذته نوبة سعال عنيف اضطره الى الخروج ليبصق فى الخارج ..

اما الحدباء فقد ظفرت بالنجاح كله ، وقيل نفاقا بالها من ربة بيت جميلة متمرنة من الان على شغل البيت !

واختتمت زوجة المدير الزيارة :

ــ والان ، اذا سالوكم فى باريس عن مساكن عمالنا فانكم تستطيعون ان تردوا .. الكل سعداء وصحتهم جيدة كما ترون .. وهواء طلق وهدوء !..

وخرجوا فى ابتهاج الخارجين من ملهى عجائب ..!

وكانت الزيارة قد جمعت النساء فى الشارع ، ثم توقفت امام الكنيسة عربة صغيرة مكشوفة ونزل منها المدير العام فى ردنجوت اسود ، وسط فضول متزايد من نساء المجموعة الاولى اللاتى شكلن جماعات اخذت تتقارب حتى ذابت فى جمهور واحد ..

وتحركت العربة بالسيدين والسيدتين تاركة وراءها جمهورا نسائيا لاغطا كانه عش نمل فى حالة ثورة .. لكن ما ان ظهر عند زاوية الكنيسة

اول العمال العائدين فى الساعة الثالثة من المنجم حتى تفرق النساءفى ذمر كل الى بيتها ، ثم لم يعد يسمع الا هـــذه الصيحة القلقة المثقلة بالشجار :

ــ آه ! .. وطعامى الذى ليس جاهزا !..

وبعد هذه الوجبة كانت تقبل ساعة الاغتسال فى مجموعة البيوت كلها : وهى ساعة الترويح عن النفس ، الفريدة فى اليوم كله ، وتبدأ فى بيت « ماهوى » باستحمام « كاترين » أولا ، أمام الجميع ، ثم يتوالى الاخرون ، حتى لا يبقى فى الصالة السفلى آخر الامر غير الاب والام والرضيعة ...

وفى ذلك اليوم نزلت « كاترين » بفستان الاحد المصــــنوع من البوبلين الازرق ، وهو شاحب ومستهلك ، وعلى رأسها طاقية بسيطة من التل الاسود ، وقالت انها ذاهبة الى « مونتسو » لتشترى شريطة جديدة لشعرها ...

ــ ومن اين لك النقود ؟..

ــ وعدتنى « موكيت » ان تقرضنى نصف فرنك ..

وتركتها الام تخرج بعد ان نصحتها بالابتعاد عن « ميجرا » وشراء الشريطة من محل آخر ، واكتفى الاب بأن يضيف الى ذلك قوله :

ــ وحاولى الا تتسكعى طول الليل فى الطرق !



فى ظلمة ليلة جلس « اتيين » عند اطلال منجم مهجور اســـمه « ريكيار » يتامل فتى وفتاة وهما يغيبان وراء ركن حظيرة متهدمة .. لم يتبين انالبنت هى « كاترين » وان رفيقها هو « شـــافال » الذى اشترى لها شريطة الشعر واخذ الثمن منها فى نفس المســاء استسلاما طائعا .. كان خروج الفتية والفتيات الى الخلاء مسالة شائعة مالوفة ، حتى البنات اللاتى لم يبلغن مبلغ النساء ، بل ان بعض الاطفال أيضا كانوا يقلدون الكبار .. لكنه عرفهما وهمـا فى طريق العودة الى المساكن الهاجعة ، حيث يسقط الشغيلة من المائدة الى الفراش منسحقين من الاجهاد .. وعندما عرفها هى بذاتها ذهل وهزه الم مبهم !

لكن الايام تتابعت فصارت اسابيع وشهورا انتظم خلالها وجوده مع عمله الجديد وعاداته الجديدة وكل ذلك الجو الوعر الذى كان قد ظهر له فى البداية صعبا ومخيفا .. وهو الان مثل زملائه يستيقظ فى الساعة الثالثة ويشرب القهوة ثم يحمل « التصبيرة » التى تجهزها له « مدام راسنير » من الليلة الفائتة ويخرج الى المنجم .. كل شىء صار عنده مالوفا ، الفحم والآلات والعربات والاقفاص .. والاعماق والناس .. فى طريقه الى المنجم لابد أن يلقاه العجوز « بون مور » فى عودته الى النوم ، فاذا خرج من المنجم بعد الظهر قابله « بوتلو » الذاهب الى عمله فى « وردية » العصر ... والآن يعـرف ممرات منجم « فورو » خيرا مما يعرف شوارع « مونتسو » ، ويعرف اين ينعطف واين يحنى راسه تحت نتوءات السقف ، ويستطيع ان يقطع الكيلومترين تحت الارض بدون مصباحه ، ويداه فى جيبيه ..!

واحبه الناس ، واحترمه « ماهوى » عندما رآه يقرا ويكتب ويتكلم من امور يجهل هو مجرد وجودها ، وصار « ليفاك » يحب أن يتكلم معه فى السياسة ، وخفت حدة الجفاء بينه وبين « شافال » بسبب

« كاترين » التى كانت الآن تتلقى ملاطفات « شـــافال » علنا بينما تغضى أسرتها عن العلاقة باعتبارها زواجا مؤقتا مؤجلا ومعترفا به ، كما جرت العادة .. !

وكان قد جاء الربيع فاباح حقول القمح للعشاق فى الليالى ، فاذا مر « اتيين » فيها استطاع ان يخمن اعشاشهم المتناثرة بين السنابل الفضة الطويلة ، واذا عاد الى خمارة « راسنير » التى يسكن تحت سقفها جلس امام كوب من البيرة يكلم جاره « ســـوفارين » الذى يشغل الحجرة الثانية المجاورة لحجرته .. وكان هذا العامل شابا يبدو فى الثلاثين واشقر نحيلا ذا وجه رقيق يحيط به شــــعره الغزير ولحيته الخفيفة .. ولم يكن فى حجرته شىء غير صندوق الاوراق والكتب .. وكان غامض المنبع قليل الكلام عن نفــــسه ، وعمال الفحم بطبيعتهم يتوجسون من الاجانب ، فقيل انه من طبقة أخرى لان له يدين صغيرتين لاتكونان الا لبورجوازى ، وتخيلوا له حادث قتل هرب من عقوبته ، ثم اطمأنوا آخر الامر الى نفسه الهادئة والى كلمة اللاجىء السياسى التى شاعت عنه والتى كانت تشعرهم من نحوه بزمالة فى الالم ...

وكان « اتيين » فى الاسابيع الاولى قد ساءه من الجار الزميل ذلك التحفظ النافر ، ثم عرف فيما بعد أن « سوفارين » هذا كان فى وطنه آخر ابناء اسرة من النبلاء ، وقد هجر دراســـة الطب عندما دفعته ميوله الاشـــتراكية الى البحث عن مهنـــة يدوية هى مهنـــة الميكانيكى كى يختلط بالشعب ويعرفه ويساعده كأخ .. وقد هرب من عاصمة القيصرية الروسية بعد محاوله فاشلة لاغتيـــال القيصر كانت نتيجتها أن تبرأت منه أسرته ·· وكان رؤساؤه فى المنجم راضين عن كفاءته وصمته ، وكان يحترم المراة ويعتبرها مجرد زميل من زملاء العمل ، ويعيش بلا امراة ولا صديق ، بلا رباط يقيده ..

وقال له « اتيين » ذات مساء :

ــ اتعرف ؟ لقد تلقيت خطابا من « بلوشار » ويبدو أن جمعيته فى « ليل » تزدهر ..

فابدى « سوفارين » رايه بايجاز :

ــ كلام فارغ ! ..

كان الكلام عن الجمعية الدولية للعمال التى كانت قد تم خلقها فى لندن واندلع صيتها ، وكرر « سوفارين » كلامه :

ـ كلام فارغ ! .. لاحل الا ان تشعل النار فى اربعة اركان المدن ويجتث كل شىء ، ثم ينبت بعد ذلك فوق خرائب العالم المتعفن عالم افضل ! ..

ضحك « اتيين » من هذه الفوضوية وقال انه على العكس من ذلك يريد ان ينشىء فرعا للجمعية فى « مونتسو » طبقا لتوجيهات « بلوشار » الذى كان سكرتيرا لاتحاد الشمال .. وكان يعتقد أن الاضراب قريب ، فان مسألة الدعائم الخشبية لن تنتهى الا نهاية سيئة ، ولم يبق الا ضغط آخر من الشركة ويثور العمال كلهم .. وهو يرى أن الوقت قد حان فعلا للتفكير فى هذه الامور ..

واشترك صاحب الخمارة فى الحديث فقال ان هذا الحال يجب ان ينتهى ، بطريقة او باخرى ، اما بالقوانين والاتفاق الودى أو بالعنف .. ولن ينتهى القرن دون أن تكون قد حدثت ثورة الذين لم ينالوا شيئا من التزايد الفذ للثراء وللرخاء منذ مائة سنة ، منذ قامت ثورة البورجوازية .. وهذه الثورة الجديدة هى التى ستنظف المجتمع من فوق الى تحت وتعيد تنظيمه بمزيد من النظافة والعدالة

لكن « سوفارين » عاد يقول وعيناه هائمتان ، كما لو كان بصوته الخفيض يكلم نفسه :

ـ الاتفاق الودى ؟ رفع الاجور ؟ هل هذا فى الامكان ؟ ... ان الاجور مثبتة عند حد القوت الضرورى ، فاذا انخفضت ماتالعمال ، ثم يعيدها الى الصعود « الطلب » على عمال جدد ، واذا ارتفعت اعادها « العرض » الى الانخفاض ... انه توازن البطون الخاوية ...

وعندما كان ينسى نفسه على هذا النحو ويعرض الامور من وجهة نظره الخاصة ، كان « اتيين » و « راسنير » يظلان قلقين أمام تاكيداته المؤسفة التى لايعرفان كيف يكون الرد عليها .. واستطرد وهو ينظر اليهما فى هدوئه المألوف :

ـ اتسمعون ؟ .. ينبغى تحطيم كل شىء ، والا فان الجوع سينبت من جديد ... لا حل الا الفوضى ، ولا شىء غيرها ! ... لا حل الا ان تستحم الارض بالدم و تتطهر بالحريق ، ثم بعدها

رى ! ..

وكل مساء كان ينشب حوار كهذا فى الخمارة العارية ، فتصحو الافكار المبهمة فى أعماق « اتيين » وتضطرب وتتمدد ..

وللنهمه قبل كل شيء حاجة الى المعرفة ، ويستعير الكتب من ...اله ، ويعجب بكتاب « الجمعيات التعاونية » الذى يصفه « سوفارين » بأنه هو ايضا كلام فارغ ... كما صار يقرأ بانتظام ...جريدة « الكفاح » التى تصل الى « سوفارين » من جنيف ...

كان صاحب الخمارة معتدلا ..

وكان سوفارين فوضويا ..

وكان الثالث بينهما يتلمس طريقه بشغف واندفاع ..



فى الايام الاولى من يولية حدث فى عرق من عروق المنجم صد
خســف الفحم فى اعمــاق الارض ، فأعلنت الشركة عن مزاد عا
« مقاولة من الباطن » فى هذا الجزء من المنجم ، وقرر « ماهوى
أن يدخل فى المزايدة وطلب الى « اتيين » ان ينضم اليه فى هــ
المقاولة ، فى مكان « ليفاك » الذى فضل على هذه المخاطرة ان ينتق
الى العمل فى قسم آخر من المنجم

وكان المقطع المعروض فى المزاد واقعا فى الممر الشمالى ، فنزلا ا
وفحصا العرق فاذا هو يبلغ من الرقة حدا كبيرا ، فى ارض متهاو
محشورة ، لكنهما اندفعا مع الرجاء فذهبا يوم الاحد الى المزاد حي
اجتمع امام منصة المهندس من خمسمائة الى ستمائة عامل جاء
لمنافســة بعضهم البعض على فتات الشركة .. وارتفع الصياح بأرة
تخنقها فى الحال ارقام اخرى ، وكانوا جميعا يبادرون الى تخفيد
السعر ، مدفوعين بقلقهم من اللغط الدائر حول الازمة العامة ورعب
من البطالة ..

وحصل « ماهوى » ومن معه على حصة تبلغ خمســين مترا ، ب
صراع مع زميل آخر كان مثل « ماهوى » عنيدا ، فجعل كل منه
ينقص من سعر العربة ، مرغما على ان « ياكل » الآخر ..

وجاء يوم الاحد الاخير فى يولية — يوم العيد فى « مونتسو »
فذبحت الارانب التى كانت تسمن منذ شهر ، وخرج الجميع ا
البلدة فى طلب شىء من المتعة

وكان « اتيين » فى شغل بفكرة انشاء « صندوق طوارىء » يعت
عليه العمال فى حالات الانقاذ السريع ، وقد وافق « ماهوى » ع
الفكرة بعد ان ناقش معه تفاصيلها وتنظيمها ، وساله ان يحاول اقن
الآخرين .. واسرفا وسط بهجة العيد فى شرب البيرة بعد ان انة

اليهما « ليفاك » و « بيرون » ، ثم اقترح « ليفاك » ان يذهبوا الى ملهى « البركان » فدخلوه بعد تردد .. وهناك ، فى اقصى الصالة الضيقة الطويلة ، وفوق منصة من الواح خشبية ، كانت خمس مغنيات من نفاية بغايا « ليل » يستعرضن عريهن المنفر .. وكان ثمن الواحدة منهن نصف فرنك ، وفى الجمهور غلمان فى سن الرابعة عشرة ، وكل شباب المنجم .. !

ولم يكد يجلس الاربعة حتى استولى « اتيين » على « ليفاك » بدوره ليشرح له فكرة « صندوق الطوارىء » بعناد المؤمنين الجدد فى كل عقيدة ..

ــ كل عضو يستطيع ان يدفع نصف فرنك فى الشهر ، وبانصاف الفرنكات هذه ينمو رصيدنا فى اربع سنوات او خمس .. وعندما يكون لدى الانسان مال فانه يكون قويا ، اليس كذلك ؟ .. هه ؟ .. ماقولك ؟ ..

وفى كل الخمارات كان العمال يسكرون ثم يتجمعون حول عربات اليد ومافوقها من لعب وقبعات ومرايا وسكاكين وحلوى ، وهناك رمى بالقوس ، ولعب بالكور الحديدية الصغيرة ، وصراع ديكة ، وسوء هضم من البيرة والبطاطس المقلية ..

وفى النهاية يشتد الزحام فى « كباريه البون جوايه » امام اكواب البيرة التى تقدمها الارملة « دزير » التى بلغت الخمسين .. وكانت تدعو كل عمال الفحم « اطفالها » وترحب بهم فى صالتها الواسعة المزينة باكليلين من الازهار الورقية متعانقين من زاوية السقف الى زاويته الاخرى ، ومجتمعين فى منتصف المسافة بتاج من الازهار نفسها ، وعلى الجدران صور دقيقة مذهبة للقديس « ايلوا » شفيع عمال الحديد والقديس « كريبان » شفيع عمال الاحذية والقديسة « بارب » شفيعة عمال المناجم ..

وفى الاركان اربعة مصابيح بترولية تنير الراقصين على انغام الفرقة المكونة من ثلاثة موسيقيين .. وفى الجمهور المتكوم على الكراسى حول الموائد امراة « ماهوى » وثديها العارى فى فم طفلتها « استيل » وحولها اطفالها « الزير » و « هنرى » و « لينور » ، وامراة « ليفاك » فى صحبة « بوتلو » الذى يمسك بيديه « اشيل »

و « دزبريه » طفلى « فيلومين » من « زخارى » ... وخلال رقصة البولكا مال « ماهوى » على اذن امراته واقترح عليهـا ان ياخذا « اتيين » ليسكن عندهما ، حتى تعوض نقوده نقود « زخارى » الذى اتفقت الاسرتان فى هذه الليلة على ضرورة زواجه من « فيلومين » آخر الامر ... على حين كان « اتيين » نفسه يقنع « بييرون » هو الآخر بفكرة صندوق الطوارىء ، واقتنع الرجل ووعد بالانضمام ، عندما انزلق لسان « اتيين » فكشف غرضه الحقيقى :

ـ سينفعنا هذا الصندوق فى حالة الاضراب ، اذ نستطيع بذلك المال المدخر أن نقاوم الشركة ونصمد لها !

عندها شحب لون « بييرون » واطرق قائلا :

ـ اعطنى مهلة للتفكير ! ..

وفى نهاية يوم العيد قبل « اتيين » شاكرا ان يسكن فى بيت صديقه بعد زواج ابن الاسرة البكر ، وعاد الجميع الى البيت‑سكارى ، حتى الاطفال ، وتخلف الشبان مع الشابات فى حقول القمح .. !

ولم ينتصف اغسطس حتى كان « اتيين » قد احتل بالنسبة لـ « كاترين » مكان الاخ الاكبر ـ الذى حصل لزوجته وطفليه على بيت خال من بيوت الشركة ـ فاقتسم « اتيين » الفراش مع « جانلان » الى جوار سرير الاخت الكبرى ، وراته هى ـ بحكم الضرورة ـ وهو يخلع ملابسه ويرتديها امامها ، كما رآها عند النوم وعند اليقظة ، كاسية وعارية ـ شفافة الجسم شقراء انيمية .. ومثله مثل غيره ، قتلت العادة استحياءه من العرى . فما ظل منه او منها مستورا ، حتى الحاجة الطبيعية .. لكن ذهنه كان منصرفا عنها الى حالة التخمر المكتوم التى يجتازها هو وزملاؤه ...

كانت اسئلة عديدة غامضة من كل نوع تعرض له . وكان ادراكه لجهله يخجله ويحزنه ...

انه لايعرف شيئا ! ..

وطلب كتبا اساء هضمها وهيجت نفسه ، ومن بينها كتاب فى الطب عنوانه « صحة عامل المنجم » الذى جمع فيه مؤلفه الطبيب البلجيكى انواع العلل التى يموت بها شعب المناجم ، وكتب فى الاقتصاد السياسى ذات جفاف تكنيكى غير مفهوم ، وكتيبات فوضوية كانت



وطلب كتبا اساء هضمها وهيجت نفسه.
ومن بينها كتاب فى الطب عنوانه
« صحة عقل المنجم » ...

تقلب راسه ، واعداد قديمة من الصحف ، مطالعات شتى ذهب معها بعض خجله من جهله .. ثم اخذه فى النهاية زهو من يحس أنه يفكر ، وامتزجت فيه المطالب العملية التى يرددها « راسنير » بالعنف التخريبى الذى ينفثه « سوفارين » ، لكن وسائل التنفيذ مبهمة امامه ، وذهنه يتشتت كلما اراد ان يخرج من تيه مطالعاته ومناقشاته ببرنامج انشائى ..

وقد نقل المناقشة معه الى بيت « ماهوى » فعلمهم كيف يتاخرون عند المائدة بعد العشاء قبل ان يدخلوا مراقدهم .. اهذه حياة ؟ .. فى هذه البيوت ، حيث لايستطيع الانسان ان يغير قميصه دون أن يرى الجيران مؤخرته ؟! .. ان النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحياة هى : رجال سكارى وبنات حبالى .. اليس فى الامكان ان نصنع بانفسنا وعلى الارض فردوسنا ؟



كان يتكلم والبنت تسمعه وهى تعتمد ذقنها بيديها وتحدق فيه بعينيها الكبيرتين الصافيتين ، وتعيش فى عقيدته التى يفتح بها المستقبل السحرى لحلمه الاجتماعى ..

اليس فى الامكان ان نصنع بانفسنا وعلى الارض فردوسنا ؟! ..

عندما يتكلم يبدو لها ولغيرها كان شعاعا من الشمس يطعن ظلمة الافق البغيض فيتهاوى رماد عالم متعفن وتبزغ انسانية شابة مطهرة .. !

ايكون هذا الحلم الجميل قريبا ؟ .. وكيف لنا ان نصنعه ؟ ..

هنا كان « اتيين » يبدو غامضا ويتوه هو نفسه احيانا فى شروحه وتفسيراته .. !

لكن الاسرة كان يبدو عليها مع ذلك انها تفهم وتوافق وتقبل الحلول الاعجازية ، بايمان المؤمنين الجدد ، الشبيه بايمان أولئك المسيحيين الاوائل فى العصور الاولى ، الذين كانوا — بايمان مطلق — ينتظرون مشرق مجتمع كامل فوق انقاض العالم القديم المنهار ..

وفى بعض الاحيان كان الجيران يجيئون للاشتراك فى هذه المناقشات ويخرجون فينشرون صيت الشاب الذى لم يلبث ان انشأ « صندوق الطوارىء » فى سبتمبر ، وقصره فى البداية على سكان هذه المجموعة وحدها من مساكن العمال ، راجيا أن ينضم اليه بعد ذلك سائر عمال الشركة .. وعندما اختير سكرتيرا للجمعية تكشفت له فى نفسه غرائز ترف كانت هاجعة فى فقره ، فاشترى ملابس حسنة وحذاء جلديا رقيقا ، وصار زعيما يتجمع حوله زملاؤه ، وسرت فى وجهه مسحة وقار ، وزاد ارتفاع الجدار النفسى الذى كان قد بدأ يعلو بينه وبين « كاترين »

وفى يوم صرف الاجور ثارت ثائرة العمال أمام اعلان معلق فى مكتب

الصراف يتضمن اخطارا من الشركة الى جميع عمالها بانها ازاء فا
العناية بالدعامات الخشبية وعدم جدوى الغرامات العقيمة ف
اتخذت قرارا بتطبيق طريقة جديدة لدفع الاجور ، فهى منذ الآ
ستدفع اجر عملية التدعيم بالخشب على حدة ، بالمتر المكعب م
الخشب المستخدم ، اما سعر الفحم المستخرج فسيخفض بنسب
خمسين سنتيما الى اربعين ، حسب طبيعة طبقات المنجم وبعدها
ورغبة من الشركة فى اتاحة الفرصة للجميع للاقتناع بالمزايا الجديدة
فانها تنوى تطبيق هذا النظام ابتداء من يوم الاثنين اول ديسمبر .

وكان كل ماقى صندوق العمال حتى ذلك الوقت ثلاثة آلاف م
الفرنكات قال « راسنير » انها لاتكفى الخبز وحده ستة ايام ، فتهم
« اتيين » واتهم حماسته للاضراب والتفت نحو « سوفارين
وساله :

ــ وانت ؟ .. ماقولك ؟ ..

وكان « سوفارين » هو الوحيد القادر على تحليل الموقف : فا
الشركة وقد مستها الازمة العامة مضطرة الى تخفيض نفقاتها ، وعل
العمال بالطبع ان يضغطوا على بطونهم ، فهى تعمل على تخفيض
اجورهم بكل حيلة متعللة باسباب واهية . ولعلها هى التى ترح
الآن باضراب يخرج منه « شعبها » العامل مروضا واقل اجرا .
ان صندوق الطوارىء الجديد هذا قد اقلقها ، بينما الاضراب يخلص
من ذلك الصندوق ويفرغه قبل ان يستفحل ويشكل تهديدا للمستقب
.. اما الاضراب فهو عنده كلام فارغ ، ومع ذلك فانه يحبذه الا
مادام فيه مصلحة ، لكنه يعلن فى الوقت نفسه ان هذه الوسائ
البطيئة تحتاج الف سنة لتجديد العالم ، فابداوا بان تنسفوا ا
هذا الجحيم الذى تموتون فيه كلكم ! ..

ان هدف الشركة واضح ، فهى تريد ببساطة ان تحقق وفرا م
قوت العمال ، وقد استدعى « ماهوى » من مكتب الصراف ا
مكتب « السيد السكرتير العام » الذى قال له ان الشركة تدرس الا
احالة والده « بون مور » الى المعاش ــ معاش المائة والخمسين فرنكا
ثم انتقل السكرتير العام الى موضوع آخر ، فاتهم العامل المرتب
الواقف امامه بالاهتمام بالسياسة ، ولمح الى العامل الذى يسك

...ه والى صندوق الطوارئ ، ثم زوده بنصيحة أخيرة هى ألا
، يورط نفسه » فى جنونيات ، هو الذى يعد واحدا من خيرة عمال
المرلة .. وأراد « ماهوى » المذهول أن يحتج لكنه عجز الا عن
الهات متقطعة قبل أن ينسحب خارجا ..

وفى الخارج انفجر أمام « اتيين » الذى كان ينتظره :

ـ يالى من جبان ! .. كان يجب ان ارد ! ..



- ١١ -

ـ سيكون للشركة الاضراب الذى تريده ! ..

تقرر الاضراب فى اجتماع بخمارة « الافنتاج » دون أن يقاومه « راسنير » كما اعتبره « سوفارين » خطوة أولى مع رفضه المساهمة فيها ، وفى انتظار الصدام مر أسبوع استمر العمل فيه مستريبا وعابسا ..

ثم جاءت لحظة رج المنجم فيها هزيم رعد بعيد ، فاندفع الجميع فى وثبة من الاخاء القلق ، ورقصت اضواء المصابيح فى أيدى العمال وهم يفرون من الموت على طول الممرات ، وظهورهم منكسرة ، كما لو كانوا يتواثبون على اربع ، وهم يتساءلون دون ان يبطئوا فى الركض اين وقع هذا الانهيار الجديد ...

كانت الدعامات الخشبية قد لانت فى احد المواضع الحساسة تحت تأثير الرشح المستمر للماء ، فحدثت فى ذلك الركن من اعماق المنجم طقطقة فظيعة ، ثم وقع الانهيار ... وبعد دويه الرهيب ساد ذلك السكون العظيم الذى يتلو الفاجعة وتصاعد غبار كثيف من مكان الحادث الى الممرات . حيث كان العمال يهبطون من كل مكان فى عماية واختناق وفزع ..

وكان السقف قد انهار فوق مسافة لاتزيد عن عشرة امتار ، فالخسارة هينة ، لكن قلوب العمال انقبضت عندما خرجت من الردم حشرجة موت ، وعاد العمال مسرعين نحو نجدة رفاقهم الذين حصرهم الانهيار فى داخل احد الممرات ..

واقبل الصبى « ببير » وقد تخلى عن عرباته وهو يركض مكررا ان « جانلان » تحت الردم ، فانقض « ماهوى » و « زخارى » و « اتيين » على الردم فى نقمة مستميتة ، ووقفت « كاترين » و « ليدى » و « موكيت » يعولن فى رعب ... وراح العمال يلصقون

اذانهم بالردم ويكلمون ذلك المدفون الذى يرسل حشرجته المستمرة الرتيبة ويسالونه عن اسمه فلا يظفرون برد غير الانين ...

وبالمعول والجاروف اندفع العمال يهاجمون الردم حتى ظهرت لهم قدم انسان ، فتركوا عند ذلك المعاول واخذوا يرفعون الردم بايديهم كاشفين عن اعضاء ذلك الزميل الواحد بعد الآخر ، فلما عرفوه تنقل اسم « شيكو » على كل الشفاه ، وكان مايزال ساخنا ، وقد قصمت صخرة عموده الفقرى.. اما «جانلان» فكان مغمى عليه وقد تحطمت ساقاه ، لكن النفس يتردد فى صدره ...

وكان ابوه هو الذى حمله بين ذراعيه وسط عويل البنات ..

وقاد الحصان « معركة » موكبا تحت الارض من عربتين حملت الاولى جثة « شيكو » التى يسندها « اتيين » وجلس « ماهوى » فى الثانية حاملا فوق ركبتيه غلامه الغائب عن الوعى وقد غطى بخرقة من صوف انتزعت من احد ابواب التهوية .. ووراء العربتين سار ذيل طويل من العمال كأنه خمسون ظلا تمشى صفا ..

وظل هذا الموكب يمشى تحت الارض نصف ساعة قبل ان يبلغ نور النهار ليجد فى انتظاره طبيب الشركة الدكتور « فندرهاغن » الذى امر فى الحال بنزع الملابس عن الميت وغسله قبل فحصه .. ثم اعلن ان راس « جانلان » سليم وكذلك صدره ، والمسالة كلها فى ساقيه .. وخلع الدكتور بنفسه ملابس الطفل فظهر جسم صغير مسكين فى ضمور جسم الحشرة ، ملوث بتراب اسود .. وعندما غسلوه هو ايضا كان يبدو انه يزداد نحافة تحت دعكات السفنجة ـ ذرية جنس من البؤساء ـ وظهرت الجروح فى فخذيه ...

وفى هذه اللحظة ظهر المهندس « نيجرل » والاسطى « دانسايير » وانفجر الاول فى غضب مشيرا الى ان السبب دائما هو ضعف الدعامات الخشبية فى المنجم .. الم يكرر مائة مرة ان الامر سينتهى بأن يفقد بعض العمال حياتهم ؟ .. كيف الحال الآن ؟ ... الم تشبعوا اذن من الكلام عن الاضراب بسبب اصرار الشركة على زيادة تدعيم سقوف الممرات ؟ .. واسوا مافى الامر أن الشركة هى التى ستدفع ثمن اصلاح ماتحطم ! .. وياسرور السيد المدير العام عندما يبلغه الخبر ! ..

وتكون موكب جديد سارت فى طليعته عربة من عربات العفش تحمل جثة العامل الميت ووراءها محفة تحمل الفلام الجريح ، ثم ذيل الناس .. وصعد هذا الموكب ببطء فى المرتقى المؤدى الى مجموعة المساكن ، فى غبش غروب يدفن السهل الواسع كله فى كفن ساقط من سماء غبراء كدرة !

واستقبلت النساء الموكب فى رعب ، متسائلات أمام اى بيت ستقف عربة الموت ..

وعندما وضعت المحفة امام بيت « ماهوى » ورات امراته ابنها حيا ومهشم الساقين ومعه الطبيب ملأت دنياها صراخا ، على حين كانت صرخات اخرى تخرج فى نواح ممزق من بيت مجاور ، حيث كانت امراة « شيكو » واطفاله يبكون فوق جثته ..

وبعد ثلاثة اسابيع خرج «جانلان» من هذه المحنة اعرج ، وصرفت الشركة لاهله ــ بعد التحقيق ــ عونا مقداره خمسون فرنكا ، كما وعدت بالبحث عن عمل خارج المنجم لذلك الاعرج الصغير .. !

واقترب اول ديسمبر وهو الموعد الذى كانت الشركة قد حددته لتنفيذ تهديدها بتخفيض الاجور ، وفى هذه الاثناء حجز « شافال » حبيبته « كاترين » فى بيته ــ فى نوبة من نوبات غيرته من « اتيين » الذى ينام معها تحت سقف واحد ــ واعلن انه هجر العمل فى منجم « فورو » الى عمل آخر فى منجم « جان بارت » الذى يملكه السيد « دينولان » وانه اخذ معه « كاترين » ايضا .. وفى البداية تكلم « ماهوى » عن عزمه على الذهاب الى بيت « شافال » فى « مونتسو » لصفعه ولاعادة الابنة الضالة بركلات فى مؤخرتها ، ثم اذعن للواقع قائلا ان من المستحيل قمع البنات وان الحل الحسن هو انتظار الزواج فى هدوء .. اما الام فلم تاخذ الامر هذا الماخذ السهل وانطلقت تحدث « اتيين » الذى كان يسمعها فى صمت وهو شاحب الوجه :

ــ انا نفسى كنت حبلى عندما تزوجنى ابوها ، لكنى لم اهرب من بيت اهلى ، فانها لقذارة ان تحمل البنت اجرها قبل الاوان الى رجل لاحاجة له باجرها .. كانت حرة تذهب كل مساء الى حيث تريد فلماذا لم تنتظر حتى ازوجها بنفسى بعد ان تكون قد عاونتنا فى هذا

الضيق ؟

كانت المرأة تتكلم وابنتها الصغيرة الحدباء تؤمن على كلامها بهزات مؤيدة من راسها ، بينما تتساءل الام كيف يعيش سبعة اشخاص ـ اذا لم تحسب الرضيعة ـ على فرنكات الاب الثلاثة ؟ . . اليس خيرا من هذا ان تقذف الاسرة كلها بنفسها جماعة الى القنال ؟

لكن زوجها تدخل فى الكلام قائلا بصوت يمزقه الانهيار المعنوى :

ـ اى جدوى من تعذيب نفسك ؟ لعل لنا مخرجا !

فرفع « اتيين » راسه وقال وعيناه تائهتان فى رؤياه :

ـ آه ! . . لقد آن الاوان ! ... لقد آن الاوان ! ...



— ١٢ —

انفجر الاضراب فى صباح يوم الاثنين ، وكان ذلك اليوم موعد وليمة الغداء التى يقيمها « آل هينبو » للسيد « جريجوار » وزوجته وابنته « سيسل » والتى كان غرض « مدام هينبو » منها ان يتم الانسجام بين « سيسل » والمهندس « بول نيجرل » والتفاهم على زواجهما ..

وكان العمال قد احتفظوا بهدوئهم عندما طبقت الشركة تعريفة الاجور الجديدة ولم يتقدم احد منهم باى مطلب فى يوم صرف الاجور فى نهاية فترة الخمسة عشر يوما ، فاعتقدت الشركة ان التعريفة الجديدة قد قبلت ، ولذلك كانت الدهشة عظيمة عندما صدر فى ذلك الصباح من العمال اعلان الحرب ، الذى كان تكتيكه فى هذه المرة يشير الى قيادة فعالة ..

وفى الساعة الخامسة ايقظ « الاسطى دانساير » السيد « هينبو » المدير العام ليخطره بان عمال منجم « فورو » جميعا لم ينزلوا للعمل وان المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال تنام نوما عميقا وقد اغلقت نوافذها وابوابها ، ثم جاء رسل يهرعون وانهالت البرقيات ، واتضح للمدير العام قبل مشرق الصبح ان التمرد لم ينحصر فى ذلك المنجم وحده بل انتشر فى مناجم « ميرو » و « كريفكور » و « مادلين » ، اما فى منجمى « لافكتوار » و « فيترى كانتل » فقد نزل ثلثا العمال فقط ، وانفرد منجم « سان توماس » بنزول جميع عماله ...

ونشط « هينبو » فاملى برقيات الى محافظ الاقليم والى مديرى الشركة الكبار سائلا عن الاوامر والتعليمات ، كما اوفد « نيجرل » للقيام بجولة فى المناجم المجاورة ، للحصول على معلومات دقيقة .. وظل مثابرا على نشاطه حتى خطرت له الوليمة فجاة ، وعندما اوشك ان يرسل الحوذى لاخطار « آل جريجوار » بضرورة تاجيل الزيارة ، اوقفه نقص فى الارادة !

هو الذى جهز ميدان حربه مع العمال بدقة عسكرية وبضع عبارات موجزة ، تردد امام قرار صغير قد يكون لزوجته فيه راى آخر ! ..

وعندما صعد اليها حيث كانت تتزين فى مخدعها بالطابق العلوى قالت له فى حزم حاسم :

ـ مادخل اضرابهم بنا ؟ .. اننا لن نصوم ، اليس كذلك ؟! ..

واصرت على اقامة الوليمة فى موعدها ، اصرار من يعلم أن كلمتها هى العليا فى هذا البيت .. !

كانت ضيقة النفس دائما بهذا الزوج الذى ترى انها فجعت فيه .. عندما تزوجها كانت هى ابنة احد اساطين صناعة الغزل فى « آراس » وكان هو شابا فقيرا حديث التخرج من مدرسة المناجم ، فتنقلت معه فى عدة شركات كان تقدمه فيها بطيئا ، لقلة طموحه .. وقد خانته من قبل مرتين فى مدن اخرى ، مرة اولى بدون علمه ، ومرة ثانية بعلمه .. وكانت تتهمه الآن بانه ضحى بها عندما جاء بها الى هذا البلد القفر الموحش فى أقصى الشمال ، بفحمه وسواده وعماله الذين يقرفونها ويخيفونها ، من اجل مرتبه البالغ اربعين الف فرنك .. ولم يهدىء من ثائرتها فى السنتين الاخيرتين الا وصول « بول نيجرل » الى « مونتسو » .. وكانت امه الارملة تعيش فى « افينيون » على دخل هزيل ، وقد قنعت طويلا بالخبز والماء كى تدخله مدرسة الهندسة العليا ، ثم جاء به عمه ـ زوجها ـ ليعمل مهندسا فى منجم « فورو » وصارت له فى بيت عمه و « عمته » حجرة خاصة ، فهو « ابن البيت » ... وببساطة خانتمعه زوجها ، وهى الآن بعد سنتين من بدء العلاقة تبحث له عن زوجة غنية مثل « سيسل جريجوار » لا لشىء الا لتبعد عنها اشتباه زوجها فيهما !

ونزل السيد المدير العام من عند زوجته التى كان يجد من نفورها الصريح منه منذ سنوات مايردعه اذا همت بها رغبته ، فلها مخدعها واستقلالها ، فالتقى بابن اخيه عائدا من جولته التفتيشية ، وعلم منه ان العمال سيوفدون اليه مندوبين للتفاهم ، وقبل ان يضيف المهندس شيئا كان صوت « المدام » قد نادى ، من فوق ، فى طراوة :

ـ اهذا انت يابول ؟ اصعد باخبارك عندى ! ..

وجلس المدير فى الدور الارضى يفض البرقيات وينتظر الضيوف

وعندما جاء الضيوف كانوا يحملون معهم تفاؤلهم بانتهاء ذلك الاضراب فى هدوء ، لكن « دينولان » عندما اقبل بعد قليل كان قلقا متوجسا ، وقد جاء من منجمه البعيد على حصان راكض :

ـ كل العمال عندى نزلوا هذا الصباح لكنى لست مطمئنا ، فان المسالة يمكن ان تتسع ... اين انتم من المسالة ؟

وعلى المائدة قالت « المدام » لضيوفها بابتسامة :

ـ ستعذروننى ! ... كنت اريد ان اقدم لكم محارا ، من الشحنة التى تصل كل يوم اثنين الى « مارشيين » وكانت نيتى ان ارسل الطباخة بالعربة لشرائه ، لكنها خافت ان تضرب بالحجارة ! ...

كانت قاعة الاكل فاخرة تتلألأ فيها الفضية ، وكان الاكل نفسه ممتازا ، لكن المرح المغتصب الذى كان يدور حول المائدة كان يخفى وراءه خوفا مكتوما تفضحه نظرات خاطفة غير ارادية تلقيها العيون نحو الطريق الظاهر من وراء النوافذ ، كما لو ان عصبة من الجياع ـ جوع الموت ـ تتربص فى الخارج بالمائدة ..

وبينما كانت الاطباق المتتابعة توضع وترفع ، دخل « الاسطى دانساير » وقال ان وفد العمال اقبل ، وقالها وهو واقف على بعد خطوات من المائدة ، ثم خرج ..

وبين الاوراق التى تلقاها المدير رسالة حرص على ان يقراها بصوت عال على ضيوفه ، وكانت من العامل « بييرون » وكان يقول فيها بعبارات مليئة بالاحترام انه يجد نفسه مضطرا الى الاضراب مع الرفاق حتى لايسيئوا معاملته ، وانه لم يستطع ايضا ان يرفض عضوية الوفد ، رغم استنكاره لهذه الخطوة ..

وكان راى المدير ان العمال سيفشون الحانات فى اسبوع من الكسل ، او اسبوعين على الاكثر ، مثل المرة السابقة ، ثم يقرصهم الجوع فيعودون الى المناجم صاغرين .. لكن « دنيولان » المتشائم هز راسه قائلا ان العمال فى هذه المرة يبدون اكثر تنظيما ، وعندهم صندوق الطوارىء ..

قال المدير العام فى وقار :

ـ ثلاثة آلاف فرنك لن تذهب بهم بعيدا ! .. وزعيمهم ـ الذى اظن انه زعيمهم ـ عامل كفء فى الحقيقة ، وسيحزننى ان اسلمه بطاقته فى ساعة فصله ، كما سبق لى ان فعلت مع « راسنير » .. ومهما يكن من امر فان نصف الرجال سيعودون الى العمل خلال اسبوع ثم لاتمر خمسة عشر يوما حتى يكون الآلاف العشرة تحت الارض !

وامام الرعب المسيطر على « دنيولان » خطرت للمدير فكرة : ان الاضراب قد تكون فيه مصلحة ، فاذا خرب منجم هذا الجار صار من السهل على الشركة ان تشترى منه ملكية منجمه بسعر منخفض ! .. هذه هى الطريقة المثلى لاستعادة رضاء المديرين الكبار عنه بعد الاضراب ، فهم منذ سنوات يحلمون بامتلاك منجم هذا الرجل الذى يابى ان يبيعه ! ...

وكانوا قد وصلوا الى القهوة عندما جاءت الوصيفة مذعورة تجرى :

ـ سيدى ! ... سيدى ! ... هاهم ! ...

ـ ادخليهم فى الصالون ..

ونهض بعد هنيهة متثاقلا ، وظل ضيوفه حول المائدة صامتين وآذانهم مرهفة الى اصداء همهمة الرجال فى الصالون القريب .. فى انتظار النتيجة !



ـ ١٣ ـ

كان من رأى « اتيين » أن يتولى « ماهوى » الكلام لمـاله من مكانة عند الشركة وعند زملائه ، لكن الرجل تردد وهو ماخوذ :

ـ لكنى لن اعرف ابدا .. ساقول سخافات ..

ـ ستقول ماتحسه ، وسيكون هذا حسنا جدا ..

وفى الموعد قصد الاربعة « ماهوى » و « اتيين » و « بييرون » و « ليفاك » حانة « راسنير » حيث كان مندوبو المناجم الاخــرى يتوافدون فى جماعات صـغيرة ، حتى تم اجتمـاع أعضـاء الوفد العشرين ، فحددوا شروطهم التى سيعارضون بها شروط الشركة ، ثم دخلوا « مونتسـو » فى هدوء ..

وادخلتهم الوصيفة فى صالون بيت المدير ، فظلوا واقفين وقـد ملأ الاثاث نفوسهم بالاحترام ..

ودخل المدير العام عليهم :

ـ آه !.. ها انتم !.. انتم تتمردون على ما يظهر ..

وقطع كلامه كى يضيف فى صلابة مؤدبة :

ـ اجلسوا ، فما اطلب شيئا احسن من التفاهم فى الكلام !

بعضهم جلس ، لكن الآخرين صدهم الحرير الموشى ، ففضلوا أن يظلوا واقفين ..

وساد سكون كان الرجل خلاله يحاول أن يتعرف على هذه الوجوه .. عرف « بييرون » الذى كان يتوارى فى الصف الاخير ، ثم توقفت نظرته عند « اتيين » الذى كان جالسا فى مواجهته :

ـ لنر ماذا عندكم ؟..

كان يتوقع أن يكون المتكلم هو « اتيين » فادهشه ان يرى «ماهوى» يتقدم .

ـ كيف!.. انت ؟!.. العامل الكفء الذى كان دائما مثال التعقل!..

احد قدماء عمالنا من اهل مونتسو !.. الذى تشتغل أسرته « تحت » من اول ضربة معول !.. آه .. انى ليحزننى يا « ماهوى » ان تكون انت على راس الساخطين !..

بدأ « ماهوى » كلامه بصوت متردد :

ـ انما اختارنى زملائى ياسيدى المدير لانى هذا الرجل الهادىء الذى لا ماخذ عليه .. وان هذا يجب ان يثبت لك ان حركتنا ليست تمردا صاخبا سيء النية .. نحن نريد العدالة فقط .. تعبنا من الموت جوعا ..

لكن صوته لم يلبث ان توطد ، فرفع عينيه بعد ان كانتا منكسرتين واستمر فى كلامه وهو ينظر الى المدير العام :

ـ من راينا انه حان الوقت لاصلاح الامور ·· حتى يكون لنا على الاقل خبز فى كل الايام !.. انت تعرف جيدا اننا لا نستطيع ان نقبل نظامكم الجديد .. واذا كان صحيحا اننا لا نحسن عملية الدعم بالخشب فان السبب فى اننا لا نعطى هذا العمل كفايته من الوقت هو ان يوميتنا فى هذه الحالة ستنقص زيادة على نقصانها .. هى التى لا تكفى الآن قوتنا .. ادفعوا لنا اكثر ونحن نشتغل احسن .. ولا يوجد هناك حل آخر ممكن ·· لكنكم ابتكرتم شيئا اخر لا يمكن ان يدخل رءوسنا ، فخفضتم سعر العربة وزعمتم انكم تعوضون هذا التخفيض بدفع اجر العمل فى التدعيم على حدة .. ولو ان هذا كان صحيحا لكان سرقة منا ، لان العمل فى التدعيم سياخذ منا وقتا اطول .. لكن ما يحنقنا ان هذا ليس صحيحا ، فالشركة لا تعوض شيئا بالمرة ، انها فقط تضع ببساطة سنتيمين عن كل عربة فى جيبها .. هاك الحقيقة !

وارتفعت همهمات من المندوبين الآخرين :

ـ اجل !.. اجل !.. هى الحقيقة ..

واشار المدير اشارة عنيفة دلت على انه يريد ان يقاطع ، لكن « ماهوى » قطع الكلام على المدير .. الآن كان قد اندفع وطاوعته الكلمات .. كانت تصحو فى اعماقه اشياء متراكمة لم يكن يعرف حتى انها موجودة هناك .. كان « يقول » بؤسهم ، كلهم ، العمل القاسى، الحياة الخشنة ، صراخ النساء والاطفال من الجوع فى البيت ،

الغرامات ، التخفيضات .. ثم ختم كلامه :

ـ لذلك ياسيدى المدير جئنا نقـــول لك انه مادامت المســـألة مسألة موت فنحن نفضل ان نموت من عدم العمل ، لان التعب سيكون بذلك اقل !.. لقد تركنا المناجم ولن نعود الى النزول فيها الا اذا قبلت الشركة شروطنا .. هى تريد ان تخفض اجر العربة وان تدفع أجـر عملية التدعيم على حدة ، اما نحن فاننا نريد ان تظل الاوضاع كمـا كانت ، ونريد أيضا ان تزاد خمسة سنتيمات عن كل عربة فى أجرنا والآن عليك انت ان تحدد موقفك من العدالة ومن العمل ..

وارتفعت أصوات كثيرة :

ـ هو هذا .. لقد قال فكرتنا جميعا .. نحن لا نطلب الا الحق ..

وآخرون وافقوا بهزة من الراس دون ان يتكلموا ، واختفى ســحر الحجرة الفاخرة ولم يعودوا يحسون السجادة الثمنية تحت اقدامهم، فهم يسحقونها تحت أحذيتهم الثقيلة ..

قال المدير عندما عاد السكون :

ـ دعونى ارد !.. قبل كل شيء ليس صحيحا أن الشركة تكسب سنتيمين عن كل عربة .. لنر الارقام ..

وتبعت ذلك مناقشة غامضة حاول المدير خلالها أن يضرب بعضهم ببعض ، فنادى « بيرون » الذى تملص من الحديث بصعوبة .. ثم ترك مسألة أجور العربات ووسع الموضوع فجاة :

ـ لا !.. اعترفوا بالحقيقة !.. انتم تطيعون تحريضات كريهة !.. ولست فى حاجة الى اعترافات احد كى أعلم هذا !.. انى أرى جيدا انهم قد غيروكم ، انتم يامن كنتم فيما مضى مثال الهدوء !.. أليس كذلك !.. الم يعدوكم بمزيد من الخبز ، وقيل لكم أن دوركم قد جاء فى السيادة ؟

كان يتكلم وهو يحدق فى « اتيين » محاولا أن يستفزه ويخرجه من سكوته ، فاشتبك به الشاب والتقطا وحدهما من تلك اللحظة حبـل الحديث .. قال الشاب فى هدوء ان الامر متوقف الان على موقف الشركة ، فرد عليه المدير فى خشونة :

ـ انت صديق « راسنير » طريد الشركة ، ذلك الاشتراكى !.. وهو بكل تاكيد الذى دفعك الى انشاء صندوق الطوارىء هـــذا ..

كنا نتحمله راضين لو انه كان نوعا من الادخار ، لكننا نشتم منـــه سلاحا ضدنا .. هو فى حقيقته احتياطى لدفع نفقات الحرب .. ومن واجبى ان اضيف أن الشركة تنوى ان يكون لهـا اشراف عـلى ذلك الصـندوق ..

ابتسم العامل الشاب عند الجملة الاخيرة ، واجاب ببساطة :

ـ هو اذن مطلب جديد ! .. لماذا تشغل الشركة نفسها بنا الى هذا الحد ؟!.. ان مانرغب فيه هو أن تتركنا فى حالنا وتتصرف هى فى الواقع بعدل وتعطينا حقنا ، بدلا من لعب دور العناية الالهية !.. حقنا ، ربحنا الذى توزعه الشركة على نفسها !.. أهو شيء شريف ان تترك الشركة عمالها فى كل ازمة يموتون من الجوع ، لانقاذ حصص المساهمين ؟ .. مهما قال السيد المدير فان النظام الجديد هو تخفيض متنكر للاجور ، وهذا هو ما يثيرنا .. أن تقتصد الشركة من مصروفاتها عندما تريد التوفير على حساب العامل وحده .. !

ـ آه !.. هانحن وصلنا !.. كنت انتظره ، هذا الاتهام بتجـويع الشعب والتنعم بعرقه !.. كيف يسمك ان تقول سخافات كهـذه ، انت الذى ينبغى أن يعرف المخاطر العظيمة التى تتعرض لها رءوس الاموال فى الصناعة ، فى المناجم مثلا ؟ .. اتعتقدون أن الشركة لاتخسر كما تخسرون فى الازمة الحالية ؟ .. لكنكم لاتريدون ان تسمعوا ، لاتريدون أن تفهموا ! ..



بشجاعة هادئة ، بثقة مطلقة ، بايمان دينى الطابع والجوهر ، كانوا شعبا صغيرا وعد بعصر العدالة .. فهو على استعداد لاحتمال العذاب من أجل غزو الهناء الموعود ، وما من شكوى سمعت فى مواجهة الايام الفظيعة التى كانت تبدأ ، بل كانوا يكادون يلمسون العصر الذهبى المأمول ، ويواجهون الواقع المر بالامل وبازدراء مبتسم ، وهذا الايمان كان بدلا من الخبز بدفء البطن ، وحتى دوار الجوع كان يتشكل فى صورة نشوة روحية طامعة فى حياة أفضل ، فى انسانية ارقى ، تلك النشوة القديمة فى الكائن البشرى التى كانت تلقى الى السباع قديما بالشهداء ..

وكان مندوبو العمال قد قالوا للمدير العام عندما وقف ليصرفهم فى نهاية المقابلة الفاشلة فى صالون بيته :

— اذن يا سيدى هذا هو ما تجيب به ·· سنذهب الى الاخرين فنقول لهم انك ترفض شروطنا ..

هنا صاح المدير :

— أنا يا رجل يا طيب ؟! ·· أنا لا ارفض شيئا ! ·· أنا أجير مثلكم يتلقى أوامر ، ومهمتى الوحيدة هى السهر على حسن تنفيذها .. انما قلت لكم ما اعتقدت ان من واجبى ان اقوله لكم ، لكنى لا اعطى لنفسى حرية اتخاذ قرار ·· وسوف أخطر الادارة العامة بمطالبكم ، ثم أنقل لكم الرد ··

كان قد عاد الى الكلام بلهجة الموظف الكبير المهذب قليل السلطة ، فنظروا اليه فى ريبة متسائلين من أين جاء هذا الالعبان واية مصلحة يمكن ان تكون له فى الكذب ، وما يمكن أن يسرقه بوضع نفسه بينهم وبين اصحاب العمل الحقيقيين !.... لعله من اهل الدسائس والمناورات ! ···· وقالوها له فى وجهه ····قال له « اتيين » المسيطر على أعصابه :

ـ يؤسفنا الا نتمكن من الدفاع عن قضيتنا بانفسنا ، حتى نفسر للمسئولين اشياء كثيرة لابد ان تفوتك اذا توليت انت الكلام.. لو اننا كنا نعرف فقط لمن نتوجه ؟

ـ هكذا !.. مادمتم لاتثقون بى فعليكم ان تذهبوا بأنفسكم الى هناك ..

هناك أين ؟ .. لابد أن ذلك « الشيء » الذى يضغط عليهم موجودفى باريس .. ماذا يكون ؟ من يكون ؟ من الاله المجهول المقعى فى محرابه والذى يحسون ثقله من بعيد على عشرة آلاف نفس بشرية ؟ ماهذه القوة التى تواجههم من وراء المدير وهو يتكلم ، مختبئة وهى توحى اليه وحيها ؟ ..

وخرجوا فى شيء من التراخى ، وعاد المدير الى حجرة المائدة ليجد ضيوفه جامدين حيث تركهم امام الكئوس .. ولخص لهم الموقف بكلمتين ، وقيل أن من المدهش حقا الا تكون هناك قوانين تحرم على العمال ترك عملهم !.. وأخيرا نادت زوجة المدير العام الخادم وقالت له :

ـ « هيبوليت » ! قبل ان ننتقل الى الصالون افتح نوافذه كلها وغير الهواء !!...

واستمر الاضراب فجاء محافظ « ليل » وملأ رجال الجندرمة الطرقات ، ثم انسحب الجميع عندما لمسوا هدوء المضربين ، الذين قاطعوا الحانات وعاونتهم نساؤهم فى التدبير ، وحتى عصابات الغلمان كانت تتبادل الصفع والعبث بغير ضجة ، وفى حكمة من يفهم الموقف .. وكان « اتيين » قد وزع الآلاف الثلاثة من الفرنكات على البيوت، كما وصلت من جهات متعددة مئات من الفرنكات جمعت بالاكتتاب ، ثم نضبت بعد ذلك الموارد وظهر شبح الجوع ..

وتعرض الايمان والثقة والشجاعة لامتحان الجوع ، وكان التاجر « ميجرا » قد وعدهم بقرض لكنه غير رايه بايعاز من الشركة التى يتلقى منها الاوامر ..

وتزايد سقوط نديف الثلج وتناقصت اكوام فحم التدفئة وصار النوم بدون عشاء قاعدة متبعة ..

وفى احد ايام الاسبوع الثالث جلس « اتيين » فى صالة البيت مع

امرأة « ماهوى » التى ترضع ابنتها .. كان سعيدا بدور الزعيم الشعبى وكان يحلم بالنيابة والمنبر وخطبة واحدة يلقيها فتصرع كل الاعداء ، اول خطبة يلقيها عامل فى برلمان !.. وفجاة ظهرت « كاترين » لاول مرة منذ هربت مع « شافال » وقالت انها جاءت من اجل الاطفال بسكر وبن ، واخرجت من جيوبها رطل بن ورطل سكر ووضعتهما فوق المائدة .. كان العمل مستمرا فى منجم « جان بارت » فلم ينقطع اجرها ، وكانت هذه هى الطريقة التى فكرت فيها لمساعدة اهلها .. لكن امها استقبلتها بخشونة :

ـ اذهبى فى الحال واعتبرى نفسك سعيدة لانى مشغولة ، والا كنت ناولتك ركلة بقدمى فى مكان ما !

واذا بهذا التهديد يتحقق فجاة ، اذ تلقت مؤخرة الفتاة ركلة قدم اذهلتها وأوجعتها ، لكن الركلة جاءتها من « شافال » الذى كان قد دخل وراءها فى وثبة وهو هائج بالغضب :

ـ آه ياقذرة ! تحضرين « له » البن بنقودى !..

لاذت الفتاة بركن فسقط غضب رجلها الغيران على الام :

ـ مهنة جميلة ، حراسة البيت بينما تتمتع ابنتك البغى بوصال حبيبها السافل الذى يسكن عندك !

وقبض على معصم الفتاة وهزها ثم جرها الى الخارج ، وعند الباب التفت مرة اخرى نحو أمها التى تسمرت فى الكرسى ناسية ان تدخل ثديها تحت ثوبها ، ونظر فى الثدى الكبير المتدلى كضرع بقرة قوية ، وصاح :

ـ عندما لا تكون البنت موجودة فان الام هى التى تقوم بالمهمة .. هيا ، اربه لحمك !..

وصار الشابان مرة أخرى وجها لوجه، فتوسلت الفتاةالى صاحبها الشرس واخذت بنفسها يده لتسحبه ، هاربة دون ان تتلفت ..

لم يكن الوقت مناسبا لاثارة معركة بين العمال ، فكظم « اتيين » غضبه وغادر البيت بعد قليل فى أسى اسود كحزن الليل المثلج الذى مشى فيه مطرقا وهو يشعر ملء نفسه بالمسئولية الكبيرة التى يحملها ..

ماذا تكون نهاية هذا الصراع المرير بين الجياع المفلسين وقوة

الشركة ؟..

وماذا يكون المصير اذا لم يأتهم عون واذا الجوع هزم الشجعان؟..

ثم استرد سكينة نفسه واصراره امام منظر منجم « فورو » الذى مر به ، وعاوده ايمانه بالنصر القريب ..

ودخل الخمارة ، وقال لصاحبها :

ـ لابد مهما يكن من شيء ان يستمر الاضراب . ولذلك فانى سأكتب الى « بلوشار » وادعوه الى الحضور لدراسة الموقف ..



تحددت الســـاعة الثانية من يوم الخميس موعدا للاجتماع الذى يخطب فيه « بلوشار » فى صالة الارملة « دزير » التى كانت قد ضاق صدرها بالبؤس النازل بالفحامين « اطفالها » كما اثارها ما نتج عن البطالة من خلو صالتها من الزبائن ، منذ حبس السكيرون أنفســهم فى البيوت خشية الخروج على كلمة النظام ..

وكانت الخمارات كلها قد خلت من روادها ، حتى ماخور «البركان» تعطلت نساؤه وبار سوقهن رغم تخفيض السعر من نصف الفرنك الى ربعه ، كما شمل قلب البلد كله حداد حقيقى ..

وكان القانون ينص على أن تكون الدعوة الى الاجتماعات صادرة من صاحب المكان الذى تعقد فيه الجلسة ، فتطوعت المراة « دريز » بارسال الدعوات بنفسها الى نحو خمسين عاملا من مندوبى المناجم .. وفى الساعة التاسعة صباحا توجه « اتيين » الى « الصالة » وتفقدها بعد ان استبدلت بمنصة الموسيقيين فيها منضدة وثلاثة كراسى فى الصدر واصطفت فى فراغها المستطيل دكك الجلوس .. ثم ظهر « راسنير » و « سوفارين » الذى كان قد اشتغل « وردية الليل » مع الميكانيكيين الذين لم يشتركوا فى الاضراب ، وقد اقبل الان ببســـــاطة مدفوعا بالفضول وحده ، على حين كان دافع « راسنير » هو القلق من أن تتطور مناقشـــــة استمرار الاضراب الى انضمام جمــــاعى الى « الانترناسيونال » التى سيخطب رجلها الســـاحر . وهو يرى ان مشكلة العمال الحقيقية ليست مع السياسة والحكومة ، وان المهم فى رايه هو ان يظفر عامل المنجم بمعاملة احسن ، وقد اشتغل « تحته » عشرين سنة وعرف البؤس والتعب فاقسم ان يظفر لهؤلاء التعســاء الباقين هناك بنصيب اوفى من طيب العيش ..

وكان يتكلم فى ثقة وهو يعلن لصديقه انه يحس ان العمـــال لن يحصلوا على شىء من هذه الافكار ، بل سيكون مصيرهم اسوا .. ان

العامل سوف يجبره الجوع على العودة الى عمله وعندذاك ستستبد به الشركة ، وهذا هو مايريد ان يمنعه .. البس من الغباء أن يعتقد احد ان فى وسعه تغيير العالم بين يوم وليلة ، بضربة واحدة ، واقتسام خيرات الدنيا كما تقتسم تفاحة ؟.. ربما لزم لتحقيق ذلك الاف والاف من السنين .. انه لا يؤمن بالمعجزة .. والعقل يقضى بالمطالبة بالاصلاحات الممكنة وانتهاز كل الفرص لتحسين مستوى العمال ..

لكن « اتيين » كان قد هاج وارتعد بالغضب ، على حين كان « سوفارين » جالسا على احد الكراسى وهو يتفرج فى هدوء على المناقشة الحادة ، بعد أن لف سيجارة ، وعلى شفتيه ابتسامة ..

والان صار « اتيين » الثائر هو الذى يشرح فى انفعال شديد وجهة نظره .. هل نعقد اذرعتنا وننتظر اذن ، بينما الناس يأكل بعضهم البعض الى نهاية العالم مثل الذئاب !.. يا لها من طريقة سهلة !.. لا !.. ان التدخل واجب ، والا خلد الظلم فى الدنيا .. ان السياسة لا يمكن فصلها عن المسالة الاجتماعية ..

وكان الثالث يسمعهما وهو لا يرى فيهما — المعتدل والثورى — أكثر من صورة اخرى من صور اصطراع المذاهب ، عندما يندفع مذهب منها نحو المبالغة الثورية فيدفع المذهب الاخر الى اصطناع الحذر والاناة ، ويندفع الاثنان بالرغم منهما الى مدى ابعد من افكارهما الحقيقية ، فى حتمية لا اختيار فيها لصاحب المذهب ..

وكان « اتيين » يقول فى ثورة :

— انت اذن تغار منى ؟..

وكان « راسنير » يجيبه :

— اغار من ماذا ؟.. انى لا اتخذ وقفة الرجل العظيم !.. ولا انشىء فرعا للانترناسيونال فى مونتسو لكى اكون سكرتيره !.. انت لا تعنيك الانترناسيونال فى شىء ، وكل ما تطمع فيه هو ان تكون على راسنا .. أن تغدو السيد الذى يراسل « المجلس الاتحادى للشمال » المشهور !

فيقول « اتيين » وهو يرتعد من الغيظ :

— مادمت لا تحتمل احدا الى جانبك فانى منذ الان سأتصرف

وحدى ، وسيتم الاجتماع حتى اذا لم يحضر « بلوشار » وبالرغم منك سينضم الزملاء !

فيرد « راسنير » عليه :

ـ ساحضر الاجتماع واتكلم وامنعك من آن تدير رءوس اصدقائى واوضح لهم المصالح الحقيقية .. وسنعرف اينا يتبعون ، انا الذى يعرفونه من ثلاثين سنة او انت يامن قلبت كل شىء عندنا فى اقل من سنة .. ان المسالة الان هى من يسحق الاخر ؟! ..

وخرج وصفق الباب وراءه فتوجه « اتيين » المنتفض الى « سوفارين » الهادىء واتكأ على المنضدة من الناحية الاخرى بعد ان جلس ، وساله :

ـ قل لى ماذا كنت تفعل لو كنت فى مكانى ؟ .. الست على حق فى تفضيل الحركة والانضمام الى تلك الجمعية ؟

وفى هذه المرة ايضا لم يرد باكثر من كلمته المفضلة :

ـ سخافات ! ..

وتوقد فى عينيه لهب محموم ..

وتقبضت يداه الرقيقتان على حافة المنضدة حتى كادتا تحطمانها ، وهو يرى الحل الوحيد صورا بشعة لخراب العالم ..

ثم انصرف ..

وبدا مندوبو العمال يظهرون فى توجس من جواسيس الشركة ، ثم ظهر « راسنير » وجماعة من الهازئين فى طليعتها « زخارى » و « موكيه » واخذوا يشربون البيرة وهم يسخرون من زملائهم الجادين .. واخيرا ظهر « بلوشار » المنتظر فى عربة يجرها حصان لاهث ، ودخل القاعة وهو يحمل تحت ذراعه صندوقا صغيرا من الخشب الاسود ..

وفى الحال تكونت هيئة المكتب وتمت الموافقة على اختيارها برفع الايدى ، واحتلت الهيئة الثلاثية مكانها فى الصدر برئاسة «بلوشار» وعضوية « ماهوى » و « اتيين » ودق الرئيس المنضدة بقبضته طالبا الانتباه ، وشكرهم على حسن استقبالهم ثم اعطى الكلمة للمواطن « راسنير » الذى كان يلح فى طلبها ..

وواجه الخمار المعارضة التى كان يحسها فلم يهاجم الاستمرار

فى الاضراب او ينادى بالتفاهم مع الشركة ، لكنه جعل همه أن ينال من اصرار العمال ويريهم الموت جوعا راى العين ، فتساءل عن الموارد التى يعتمد عليها انصار المقاومة .. وعندما قوبل بصمت بارد حمله تيار الغضب فتنبأ لهم بالشقاء اذا تركوا رءوسهم تدبرها تحريضات خارجية ، فهبت القاعة الا اقلية صغيرة تريد أن تمنعه من قول المزيد ، ولم يعد الهدوء الا بعد ان قرر المجتمعون سحب الكلمة منه .. وهنا انبرى « بلوشار » يرسم الكتدرائية الضخمة لعالم المستقبل والنصر القريب الحاسم ـ الذى كان يتوقع حدوثه قبل مرور ثلاث سنوات ـ وتكلم عن الاضراب فقال انه من ناحية المبدا لا يقره ، فهو وسيلة شديدة البطء ووطاتها على العامل ثقيلة ، لكنه فى انتظار ما هو احسن ، وعند الضرورة ، لا يمانع فيه ‥ وعندما راى الاقتناع العام ناطقا فى الوجوه اخرج من صندوقه بطاقات العضوية .. لكن عملية توزيعها لم تكد تبدا حتى فتح الباب فجاة وملأته المراة « دزير » ببطنها وصدرها الهائلين وهى تقول بصوت راعد :

ـ الصمت ! .. الجندرمة ! ..

وما ان قالتها حتى حدث اضطراب فى القاعة لم يتم معه شىء ، لا التصويت على الانضمام ولا الموافقة على الاستمرار فى الاضراب .. لكن الرئيس طلب فى عجلة خاطفة أن يتم التصويت فى الحال برفع الايدى ، فارتفعت بعض الايدى ولم يرتفع بعضها الآخر وصاح المندوبون معلنين انهم ينضمون باسم الزملاء الغائبين .. وبذلك صار عمال الفحم فى « مونتسو » البالغ عددهم عشرة آلاف ، اعضاء فى الانترناسيونال ثم تسلل الحاضرون من باب المطبخ الى مخزن الوقود ، وكان « راسنير » اول من هرب ..



فى بداية يناير القاسية زاد البؤس رغم ان أربعة الاف فرنك وصلت من لندن من المكتب الرئيسى للأنترناسيونال فلم تكف الخبز وحده اياما ثلاثة ، ثم ضاعوا فى برد الشتاء وغاصوا فى رعدة الجوع وأحسوا انهم انعزلوا عن العالم ..

كان قد مر شهر على بداية الاضراب لم تبق خلاله فى بيوتهم آنية مطبخ او قطعة اثاث صالحة للبيع ، وحاصرتهم شائعة تقول ان الشركة مستعدة للتفاهم اذا خطا مندوبو العمال خطوة اخرى عند المدير ، لكن « اتيين » والمندوبين ترددوا فى المخاطرة بمثل هذه الخطوة من جانبهم دون أن يعرفوا نوايا الادارة .. ان الاضراب الذى اضر بالعمال قد ضيع ايضا على الشركة نفسها مئات الآلاف من الفرنكات عن كل يوم بطالة ، وكل مكنة تتوقف هى راسمال ميت ، والمهمات والادوات بدون العمال لا حركة لها ، وكبار الزبائن يتكلمون عن استيراد الفحم من بلجيكا ، والخسائر متزايدة فى ممرات المناجم المهجورة حيث تكررت الانهيارات وغمرت المياه بعض العروق وصارت حالة المناجم فى حاجة الى اصلاح قد يستغرق اشهرا قبل استئناف الانتاج ..

واخيرا انتهى هذا التردد الى قرار بالتوجه الى المدير ، حتى لا يتهموا فيما بعد بانهم رفضوا فرصة اطلاع الشركة على اخطائها ، بعد ان أقسموا ألا يتنازلوا عن شىء من شروطهم العادلة ... وكانت مقابلة جافة فى هذه المرة ، بداها المدير « هينبو » قائلا انه لم يتلق اوامر جديدة وان الامور لا يمكن ان تتغير طالما احتفظ العمال باصرارهم على تمردهم الكريه ، ثم لان واخذ يبحث عن ارض محايدة بتنازل فيها كل من الطرفين عن قدر من صلابته .. فاذا هم قبلوا ان يكون أجرهم عن عملية التدعيم على حدة ، فان الشركة تزيد هذا الاجر بمقدار السنتيمين اللذين يتهم العمال الشركة بأنها

تريد كسبهما منهم ، واضاف انه يقدم هذا العرض «على مسئوليته» لأن الشركة لم تقرره ، وانه يسره مع ذلك ان يقنع « باريس » بهذا التنازل ، فلما رفض المندوبون وكرروا مطالبهم اعترف بانه مفوض للاتفاق في الحال ، واستحثهم على القبول باسم نسائهم واطفـالهم الذين يموتون من الجوع ، فكرروا له الرفض ، وافترقوا بخشونة !

وبعد الظهر تحرك من مساكن العمال وفد آخر ، نسائى فى هذه المرة ، كان هدفه انتزاع قرض آخر من التاجر اللئيم « ميجرا » .. انتزاعه للجياع ! ..

وكن نحو عشرين امرأة من بينهن امراتا « ماهوى » و « ليفاك » وأم « فيلومين » الشيخة « لابروليه » .. وما ان اهل هذا الموكب على بلدة « مونتسو » حتى هز اهلها رءوسهم من القلق واغلقت الابواب وخبأت احدى السيدات فضيتها ! ..

وعندما عاد النساء هن ايضا بأيد فارغة نظر الرجال اليهن فى صمت ، ثم نكسوا رءوسهم .. !

كانت ليلة بلا دفء ، ولا رجاء ، ولا عشـاء فلم يطق « اتيين » جو البيت الحزين الخالى من كسرة خبز ..

ـ انتظرونى ، لعلى اجد شيئا فى مكان ما !

كان قد ذكر البنت « موكيت » التى ضعف مرة امام الحاحها الشديد وضاجعها ، وتوقع ان يجد عندها الليلة خبزا ..

ودخل اطلال منجم « ريكيار » حيث تعيش مع أبيها انشيخ حارس المنجم تلك التى تقبل يديه فى فرح الخادمة العاشقة ..

وبعد خروجه من البيت بقليل كانت امرأة « ماهوى » هى الاخرى قد نهضت قائلة انها ستذهب فترى .. وقصدت بيت الجار « ليفاك » أول ما قصدت ، لكن رائحة البؤس فى ذلك البيت كانت اقوى وافدح من رائحته فى بيتها .. فذهبت ودقت باب « بييرون » الذى كان مستكنا وراء بابه وهو يدعى المرض ، وهناك سمعت ضحكات قطعها دق الباب ، وسكونا مفاجئا .. ثم مرت لحظة قبل ان يفتح لها .. ورأت الموقد عامرا والرجل فى عافية ـ وان كان يصطنع ضعف المرض ـ وشمت نكهة ارنب مطبوخ .. لابد أنهم أخفوا الطبق .. لكن الفتات كان ظاهرا على المائدة حول

زجاجة نبيذ نسوا ان يخفوها هى الاخرى .. وارتدت خارجة الى الشارع الذى كان القمر من وراء السحاب يلقى عليه نورا مريبا ..

وامام الكنيسة رات « الاب جوار » فتوجهت اليه بتحية كلها رجاء وعشم ، لكنه رد تحيتها دون ان يتوقف ليصغى اليها ..

وعندما عادت الى بيتها وجدت أهلها جامدين فى اماكنهم حيث تركتهم ، الكبار والصغار ، فارتمت هى الأخرى قرب النار الخامدة .. ومر وقت ثقيل قبل ان يظهر « اتيين » حاملا فى خرقة نحو عشر من حبات البطاطس المسلوقة الباردة ، وكذب وهو يأبى ان يأكل منها زاعما انه تعشى « هناك » ، فانقض الصغار فى سعار ، واضطر الكبار ان ينتزعوا واحدة من بين يدى العجوز النهم « الموت الطيب » كى تأكلها « الزير » الواهنة القوى .. وهنا خرج « ماهوى » من صمته فاقترح للغد عقد اجتماع مسائى فى الغابة للتشاور ..

وافق الشاب على الفكرة وخمدت النار وانطفات الشمعة . وحان ان يتلمس كل طريقة الى مرقده ، فى الظلام ، فى الجوع ، فى البرد .. وكان الأطفال يبكون .. ثم ساد الصمت ..



— ١٧ —

فى أصيل ذلك المساء الكئيب كان الغلام الاعرج « جانلان » فى خرابة وراء سور يواجه بقالة عوراء فى زاوية طريق ، ومعه تابعاه اللصيقان « ببير » و « ليدى » ، وكان متربصا فى مكمنه بالمرأة العجوز التى تكاد تكون عمياء ، صاحبة الدكان الرابضة وراء أكياس قليلة من العدس والفاصوليا سوداء من التراب ، وكان هدفه سمكة مقددة معلقة فى باب الدكان !

وكان على « ببير » الخانع ان يطيعه فينقض على السمكة ويخطفها ، فلما خلا الطريق الساكن من المارة دفع الأعرج صاحبه المطيع الى « الشغل » :

ـ هيا يا جسور ! .. شد من الذيل ! .. واحذر ، فالعجوز عندها مكنسة ! ..

كانوا قد صاروا رعب البلد ، هؤلاء الصعاليك ..

غزوها شيئا فشيئا واكلوا سمك القنال نيئا وانتشروا كيلو مترات والتهموا توت الربيع وبندق الصيف ، ولم يلبث السهل الرحيب كله أن صار ملكهم ..

وكان الأعرج كابتن هذه الحملات الذى يقذف بذئابه الشابة على كل الفرائس ، مكتسحا حقول البصل والفاكهة ومهاجما معروضات الحوانيت .. وهو الآن بعاهته اسرع فى العدو منه قبل الحادث ، واكثر سلطة .. وقد بلغ من طغيان عصابته ان قيل فى الاقليم ان العمال المضربين انفسهم هم الذين كونوا عصابة كبيرة منظمة للسلب والنهب !

وكان من سلطته على الصبية « ليدى » انه اجبرها ذات مرة على ان تسرق من امها دستتين من اعواد حلوى الشعير كانت امرأة « بيرون » تحتفظ بهما فى وعاء زجاجى معروض فى نافذتها ، وعندما

ضربت بقسوة لم تعترف باسمه ولم تخنه ، فالى هذا الحد كانت ترتعد امام سلطانه .. !

ومن كل غنيمة كان « جانلان الأعرج » يحتفظ لنفسه بحق الأسد ، حتى « بيبر » الذى يكبره بسنة كان يسعده أن يسلم غنيمته الى الكابتن ليحتفظ بها كلها لنفسه ، على أن ينجو من الصفع ! .. وهذا هو ما حدث فى ذلك المساء ، اذ ما كاد يخطف السمكة المقددة حتى انتزعها منه الكابتن :

ــ هات ! ..

ــ اريد منها .. انا الذى اخذتها ! ..

ــ هه ؟ ماذا ؟ .. ستاخذ منها اذا اعطيتك انا ، وليس هذا المساء على كل حال .. غدا ، ان بقى منها شىء !

وامره ان يقف امامه فى صف واحد مع البنت كما لو كانا جنديين تحت السلاح ، ومر من ورائهما قائلا لهما :

ــ الآن تظلان خمس دقائق دون أن تتلفتا ، وبعد ذلك ستذهبان الى البيت مباشرة ، واذا لمس « بيبر » « ليدى » فى الطريق فانى ساعرف ذلك ، وساصفع !

واختفى فى اعماق الظلام بخفة لا يسمع معهما وقع قدميه الحافيتين ، فظل الولد والبنت جامدين خمس دقائق دون ان يتلفتا ، خشية صفعة من حيث لا يدريان .. ثم مشيا جنبا الى جنب ، وهى تريده وهو يريدها ، وكان قد ولد بينهما على مهل تعاطف مبعثه الرعب المشترك ، لكنهما كانا عاجزين عن الخروج على الطاعة ، وكان كل منهما على يقين بانهما اذا تلامسا أو جمعتهما قبلة سيتلقيان فى الحال من الكابتن صفعة ! ..

وفى الساعة نفسها كان « اتيين » فى طريقه الى « موكيت » التى كانت امس قد توسلت اليه ان يعود ، وكان مستخذيا ومصرا على عدم الاعتراف لنفسه بشغفه الغريب بتلك البنت المبذولة ، التى تعبده .. سيقول لها الليلة ان الاستمتاع جريمة عندما يموت الناس من الجوع ، ويقطع العلاقة فى مهدها .. ولم يجدها ، فجلس فى الظلمة ينتظرها .. وفجاة اضاء عند بئر المنجم عود كبريت ، عند تلك الفوهة المهجورة التى تقول الشركة منذ عشر سنوات انها

مسندها ، والتى تراكم حولها الخشب القديم ونبتت شجيرات وتعانقت أعشاب ، وذهل عدما تبين « جانلان » الذى كان يوقد شمعة ويغوص بها فى قلب الأرض !

ودفعه فضوله الى الجحر الذى اختفى فيه الغلام الاعرج فرأى قبسا من نور الشمعة يكشف طريقه ، فتردد قليلا ثم اندفع هو الاخر قاذفا بنفسه فى الجحر وهو يتعلق بجذور النباتات ٠٠ وانتهت سقطته عند درجة سلم ، فاخذ ينزل فى هدوء مستهديا بالنور الضئيل الذى يرقص فيه أمامه ظل الغلام عملاقا ومقلنا وهو يتوثب ببراعة قرد فى السلالم المتتابعة التى يبلغ طول الواحد منها سبعة أمتار ، والتى كان بعضها لا يزال متينا والبعض الآخر يتارجح ويطقطق وقد اكتست الدرجات بعفونة خضراء ينزلق فوقها القدم ٠٠ وكاد يهوى مرتين لانزلاق قدمه على الخشب اللزج ، وراح يصطدم فى كل خطوة صدمة توجعه ٠٠

وبعد هبوط اليم فى ثلاثين سلما وصلت به الى عمق مائتين وعشرة أمتار لمح الشمعة تختفى فى احد الممرات ، فتبعها فى رحلة اشد خطرا ، وخفافيش مذعورة تطير وتلتصق بالسقف فوق راسه .. وحيث كان الغلام يمر بليونة الثعبان كان هو يؤذى اعضاءه فى ذلك الممر المهجور الذى كان يضيق فى بعض اجزائه كانه مصران ..وصار الآن يتقدم فى حذر ، على ركبتيه او على بطنه ، متحسسا الظلمة امامه ، وفجاة اكتسحت جسمه من العنق الى القدمين عصبة من فيران تركض هاربة

وفى نهاية كيلو متر اتسع النفق فجاة الى ما يشبه مغارة طبيعية ، فتوقف الشاب وهو من بعيد يرى الغلام وهو يضع شمعته بين صخرتين ويجلس مستريحا فى اطمئنان العائد الى بيته ..

وفى ركن من الكهف كانت كومة من التبن فى شكل مرقد لين ، وعلى قطع من الخشب القديم مرصوصة بشكل مائدة كان هناك خبز ونبيذ وكل الغنائم المكدسة ، حتى العقيم منها ، كالصابون والبوية اللذين سرقهما لمجرد لذة السرقة ، كل محصول الأسابيع الاخيرة الذى ينعم به الولد فى لذة قاطع الطريق الانانى ٠٠

ــ قل لى ، اتهزأ بمن يموتون « فوق » من الجوع ؟
ارتجف الغلام من الرعب عندما سمع معه فى كهفه صوتا بشريا ، لكنه ما إن عرف المتكلم حتى استرد فى الحال طمانينته :
ــ هل لك ان تتعشى معى ؟ هه ؟ .. قطعة من السمك المقدد ؟ ..
وبدا يعمل فى السمكة الجافة بمدية جميلة ذات مقبض من العظم نقشت عليه كلمة « حب » ...
ــ لك مدية جميلة ! ..
ــ هدية من « ليدى » ! ..
لم يقل انها سرقتها نزولا على امره ، وانما اضاف بزهو :
ــ اليس مريحا ان يكون المرء فى بيته ؟ هنا ادفا من « فوق » وافضل ! ..
جلس الشاب وقد هاج فضوله فاسكت غضبه ، وتذوق الرغد فى اعماق هذا الجحر الدافىء الذى تسرح فيه قطعان من الفراشات والذباب والعناكب جردها بعدها الابدى عن الشمس من كل لون ، فهى بيضاء شاحبة البياض ..
ــ الا تخاف اذن ؟ ..
فنظر الغلام مندهشا :
ــ اخاف من ماذا مادمت وحيدا !
واشعل نارا صغيرة وشوح السمكة المقددة فوقها ثم قطع رغيفا نصفين ، واكل مع ضيفه ..
ــ والآخرون ، الا تفكر فيهم ؟! ..
ــ لماذا هم بلهاء ، الآخرون ؟! .. عندما سرقت رغيفا من « ميجرا » كان ذلك عوضا عن رغيف ندينه به !!
تامل وجه الغلام الحيوانى وعينيه الخضراوين واذنيه الكبيرتين ، والذكاء الشرس والحيلة الوحشية ، وكل اعتلال الجنين المجهض قبل اوانه ، والذى استردته الحيوانية القديمة .. ان المنجم الذى صنعه قد اجهز عليه يوم حطم ساقيه !
ــ وهل تاتى بصاحبتك « ليدى » فى بعض الاحيان الى هنا ؟
فكان رد « جانلان » ضحكة احتقار :
ــ آه ! .. لا ! .. فالنساء ثرثارات !

ثم ختم كلامه بجد فيلسوف صغير :

ـ الأفضل ان يظل المرء وحيدا . فهكذا يكون دائما فى راحة ! ..

وفكر « اتيين » بعد أن أكل وشرب فى ان يتنكر لضيافة الغلام ويعيده الى اهله من اذنه ، لكنه تأمل تلك العزلة العميقة وتصورها ملاذا له أو للرفاق اذا ساءت الأحوال ، فتناول بقية شمعة وانصرف تاركا الغلام ليرتب بيته فى هدوء ..



— ١٨ —

كانت كل الطرق منذ الاصيل عامرة بظلال تنسل فى جماعات صغيرة نحو اعماق الغابة ، وقد لمح « هينبو » بعض هذه الظلال وهى تتوارى فى عتمة الغابة فحسبها تسعى الى متعتها المالوفة التى لا تتكلف شيئا فحسدها عليها ، وتمنى لو يموت مثلهم من الجوع ويكون فى وسعه أن يبدأ الحياة مع امراة تهبه نفسها بكل هذه الرغبة فوق ارض عارية ، ونكس راسه وهو يعود الى بيته فوق حصانه البطىء الخطو وقد ملأت نفسه بالياس هذه الأصوات المتصلة الضائعة فى قلب الخلاء المظلم ، التى لم يكن يسمع منها الا صدى قبلات .. اما هناك فى قلب الغابة فقد كان الأمر جدا ، وكان ثلاثة آلاف من عمال المناجم قد تجمعوا ومعهم نساؤهم واطفالهم فى بقعة اجتثت اشجارها ولا يزال بعضها ملقى فوق العشب كالعمالقة ، واخذت تصدر عن هذه الجمهرة همهمة كانها ريح مزمجرة فى هذه الغابة الجامدة المثلجة ..

ووقف « اتيين » فى اعلى المنحدر الخفيف ، اما اصحاب الهزل ومن جاءوا للضحك وحده فقد لاذوا بجانب بعيد ، على حين تجمعت النساء فى هدوء وجد كما يظهرن فى الكنيسة ، واعتلى الولد الأعرج كومة الخشب المرصوص ناحية الشمال بعد ان اجبر تابعيه « بيبر » و « ليدى » على محاكاته ، حتى يكونوا اعلى من الجميع ..

ومرة اخرى كان الخلاف على اشده بين الرجلين الواقفين فى ذروة المنحدر ، فان « راسنير » كان يصر على أن تعاد عملية انتخاب المكتب بطريقة نظامية ، على حين كان من راى « اتيين » ان من الغباء اجراء مثل هذه الخطوة فى غابة ، وان المطلوب الآن هو الاتفاق على تصرف ثورى ضد اولئك الذين يطاردونهم كما تطارد الذئاب ..

وعندما طال الخلاف صعد فجاة فوق جذع شجرة وصاح

مستوليا على الجمهور ، فانطفأ اللغط المبهم فى تنهدة طويلة بينما كان « ماهوى » يطفىء احتجاجات « راسنير » ، واستمر « اتيين » فى زعيقه :

ـ ها نحن أحرار كما لو كنا فى بيوتنا ، فلن تأتى الجندرمة لتخرسنا كما لو كنا لصوصا ، حيث لا يخطر لأحد ان يسكت الطيور والحيوانات نفسها ! ..

فاجابه رعد من الصيحات :

ـ اجل ! .. اجل ! .. الغابة لنا ومن حقنا ان نتكلم فيها .. لنكلم !

كان القمر لا يزال خفيضا عند الأفق فهو لا ينير غير الاغصان العالية ، بينما ظل الجمع الكبير غارقا فى الظلمة وهو يصغى الى السكرتير وهو يستعرض الاضراب منذ بدايته وموقف الشركة التى تهدد الآن باستخدام عمال من بلجيكا ، كما تقنع بعض الضعفاء بالعودة الى العمل من وراء ظهر اخوانهم .. وقد صور لهم بامانة خلو ايديهم من كل عون ، وانتصار الجوع ، وموت الرجاء ، ووصول الصراع الى حمى البسالة الاخيرة ، ثم ختم خطابه دون ان يرفع صوته :

ـ هذه هى الظروف التى على ضوئها يجب عليكم ان تتخذوا قراركم هذا المساء .. هل تريدون الاستمرار فى الاضراب ؟ .. وفى هذه الحالة ، ماذا تنوون أن تفعلوا للانتصار على الشركة ؟

سكت الجمع فى الليل الذى يخفيه ، فعاد الى الكلام ، بصوت متغير .. لم يعد سكرتير الجمعية هو الذى يتكلم ، بل الزعيم والرسول حامل الحقيقة .. اهناك جبناء يحنثون بالكلمة ؟ .. كيف ؟! .. أيكون عقيما كل العذاب الذى عانوه شهرا ؟.. ايعودون الى المناجم منكسى الرءوس ليعود البؤس الخالد ؟ .. أليس أفضل من هذا ان يموتوا فى الحال فى محاولة مستميتة لتحطيم الاستبداد ؟ الى متى يتحملون وحدهم النكبات والازمات كلما خفضت ضرورات المنافسة سعر التكلفة ؟ .. لقد آن الاوان للبؤساء الذين بلغوا آخر مراحل الصبر ان ينالوا العدالة ويعانقوها ..

انفجر التصفيق وتعالت الهتافات ، وتوقد الزعيم ، ولأن له

الكلام :
ـ البحر للصياد والأرض للفلاح ، فعلى المنجم ايضـا يكون للفحامين ! .. اتسمعون ! .. المنجم ملككم ، كلكم ، انتم الذين دفعتم ثمنه منذ قرن بالدم والبؤس .. ملككم ..

وأناره القمر الصاعد في الافق فراوه أبيض في النور وراوا يديه المشيرتين الى البلد كله توزعان الثروة ، فصفقوا وهللوا .. لم يعودوا يحسون البرد منذ ادفأتهم هذه الكلمات ، وانما دقت قلوب الرجال والنساء وانتعشت ..

لكن « راسنير » أخذ يصرخ طالبا الكلمة ، فقفز الخطيب من فوق جذع الشجرة الملقى وهو يقول له :
ـ تكلم وسنرى ان كانوا يصغون اليك ! ..

ارتقى صاحب الخمارة ذلك المنبر واشار يطلب السكوت فابوا أن يسمعوه وضاع كلامه في الضجة ، ثم انهم آخر الأمر رجموه . وصاحت امرأة حادة الصوت :
ـ ليسقط الخائن ! ..

فكررت الهتاف آلاف الأصوات بينما كانت الحجارة تصفر في الجو وهي تقصده ..

وشحب الرجل وانبثقت في عينيه دموع اليأس ، فلقد كانت هذه اللحظة في احساسه نهاية عشرين سنة من الاخوة الطموحة تتهاوى تحت نكران الجمهور ، فنزل وهو يقول للشاب المنتصر :
ـ هذا يضحكك ! .. أتمنى أن يحدث هذا لك ، ولسوف يحدث ، اتسمع ! ..

وانصرف وحيدا خلال العراء الأبيض الصامت ..
وعاد « اتيين » الى المنبر فتكلم وأثار وسالهم مرة اخرى :
ـ ما هو قراركم ؟ .. هل تصوتون مع استمرار الاضراب ؟
تعالت الموافقة كالرعد ، فعاد يسالهم :
ـ وما هي اجراءاتكم ؟ .. ان هزيمتنا مؤكدة اذا عاد بعض الجبناء الى العمل غدا ..
ـ الموت للجبناء ! ..
ـ اتقررون اذن أن تعيدوا الجبناء الى الواجب والى القسم الذي

اقسمناه جميعا ؟ .. هذا هو ما نستطيع أن نفعله .. نذهب الى المناجم لنمنع الضعفاء من النزول ونرى الشركة اننا كلنا على وفاق واننا نؤثر الموت على الاستسلام ..

ـ هو هذا ! .. الى المناجم ! .. الى المناجم ! ..

فقال الزعيم منذرا :

ـ ليحذر عمال « جان بارت » الذين لم يتركوا العمل ، فنحن نعرفهم ! ..

فارتفع من الجمع صوت « شافال » يسال :

ـ اتعنيني بكلامك هذا ؟ ..

ـ انت او غيرك ، لكن ما دمت تتكلم فان عليك ان تفهم ان اولئك الذين يأكلون ليس لهم ما يفعلونه مع الجياع ، انت يا من تشتغل ولا تضرب ! ..

ـ اهو ممنوع ان يشتغل الانسان ، ام ماذا ؟!

ـ اجل ! عندما يتحمل الاخرون البؤس من اجل خير الجميع ! .. لو ان الاضراب كان شاملا لكنا من زمن قد سدنا الموقف .. انه لا يوجد فى منجم « جان بارت » الا خونة ! .. كلكم خونة !

وتكونت حول « شافال » حلقة مهددة وارتفعت قبضات الأيدى وزعقات دفعته الى الصياح بفكرة جاءته للانتصار على منافسه الذى يغار منه :

ـ اسمعونى ! تعالوا غدا الى « جان بارت » وسترون هل اشتغل او يشتغل احد ! .. نحن منكم ، وقد ارسلونى لأقول لكم هذا ! ..

فصفقوا له ، وتم الاتفاق على اللقاء عند ذلك المنجم صباح الغد ، وملأ السماء اعصار هذه الآلاف الثلاثة من الاصوات ..

ثم انطفأ الاعصار فى ضوء القمر ..

— ١٩ —

غاب القمر ونام كل شيء في بيت « آل دينولان » الواقع فى نهاية الحديقة الواسعة المهملة التى تفصل البيت عن منجم « جان بارت » ، أما الواجهة الاخرى للبيت فكانت تطل على الطريق المقفر المفضى الى القرية المجاورة الكبيرة المختبئة وراء الغابة على مسـافة ثلاثة كيلو مترات .. لكن رب البيت لم يلبث أن صحا من نومه على نذير من احد رجاله بعصيان نصف عمال المنجم ، الذين يمنعون النصف الثانى من النزول للعمل » ..

— اجبرهم على النزول !! ..

وارتدى « دينولان » ملابسه فى عجلة وخرج من حجرته فالتقى بابنتيه مذعورتين تتساءلان عن الخبر ، وكانت الكبرى سمراء فارعة والصغرى دقيقة الجسم ذهبية الشعر وظريفة الدلال ، فأرغمتاه على تناول كاس من الروم وقطعتين من البسكوت قبل خروجه لمواجهة المخاطر التى تتهدد ماله ..

كان « شافال » قد وصل الى المنجم منذ الساعة الثالثة من الصباح واخذ يقنع زملاءه بضرورة الاقتداء بعمال الشركة والمطالبة بزيادة خمسة سنتيمات عن كل عربة فحم يخرجونها .. والذين ارادوا ان يشتغلوا حملوا مصابيحهم ووقفوا باقدامهم الحافية وادواتهم تحت اذرعهم ، اما الاخرون فلم ينزعوا احذيتهم الخشبية وسدوا الطريق الى البئر .. وكان الرؤساء يضطربون وسط هؤلاء الاربعمائة رجل وهم يتوسلون الى المضربين ان يتعقلوا ولا يمنعوا الراغبين فى العمل من النزول ..

وغضب « شافال » عندما لمح « كاترين » فى ملابس العمل ، اذ كان قبل ان يغادر البيت قد امرها بعنف أن تظل راقدة ، لكنها تبعته ، فهى تريد ان تعمل لانه لم يكن يعطيها نقودا بل كان عليها هى فى الكثير من

الاحيان ان تدفع لها وله .. وماذا يكون مصيـــرها الان اذا لم تعد تكسب شيئا ؟ . كان هناك خوف يسكنها .. الخوف من بيت من بيوت البغاء فى « مارشيين » كانت تنتهى اليه العاملات عندما تعز عليهن اللقمة والمأوى ! ..

وهددها بقدمه فتراجعت فى خوف ، لكنها لم تغادر المكان واصرت على ان ترى كيف تتطور الامور ..

وظهر صاحب المنجم :

ــ ماذا يجرى يا اطفالى ؟ . ما الذى يغضبكم ؟ .. فسروا لى هذا، وسنتفاهم ..

ــ هاك المسألة يامسيو « دينولان » ! .. نحن لا نستطيع الاستمرار فى العمل ، اذ تلزمنا خمسة سنتيمات زيادة فى أجر كل عربة ..

ــ خمسة سنتيمات ؟ !.. باية مناسبة هذا الطلب ؟ . أنا لا اشكو من عملكم فى التدعيم ولا اريد ان افرض عليكم تعريفة جديدة مثل شركة مونتسو ! ..

ــ لكن زملاءنا فى مونتسو هم مع ذلك على حق ، وهم يرفضـــون التعريفة ويصرون على زيادة السنتيمات الخمسة ، ونحن نريد خمسة سنتيمات زيادة ، أليس كذلك يا هؤلاء ؟

وايدت الاصوات « شافال » واقترب الجميع شيئا فشيئا حتى كونوا حلقة ضيقة ..

وقاوم صاحب المنجم رغبته فى الوثوب الى عنق احدهم ،وسيطر على قبضته ، قبضة الرجل عاشق الحكومات القوية ، وآثر ان يناقش ويتكلم بعقل ..

ــ لا استطيع ان ادفعها لكم .. اذا دفعتها لكم فمعنى ذلك ببساطة هو افلاسى .. افهموا اذن انى يجب ان اعيش انا اولا حتى تعيشوا أنتم .. وانا فى اخر طاقة احتمـــالى ، واقل زيادة فى سعر التكلفة ستقضى على .. انى اذن افضل ان « اقفل الدكان » فى الحال على ان اعجز فى الشهر القادم عن دفع أجوركم ..

وبدا على بعض العمال التردد وعاد الكثيرون الى ناحية البئر ، فقال احد الرؤساء :

ــ على الاقل ليكن كل واحد حرا .. من هم الذين يريدون ان

يشتغلوا ؟

وكانت « كاترين » فى طليعة المتقدمين ، لكن « شافال » دفعها فى غضب وهو يصيح :

ـ كلنا متفقون ولايخون رفاقه الا الخونة ! ..

واستحال التفاهم وارتفع الصراخ ودفع الثائرون زملاءهم بعيدا عن البئر ، فانسحب صاحب المنجم الى احد المكاتب ، ثم ارسل احد المراقبين فى طلب « شافال » وصرف الاخرين ليخلو بذلك العامل الذى صبحه بالاضراب على غير انتظار ..

وكانت فكرة « دينولان » ان يرى مافى بطن هذا الولد !

ابتسم له وتملقه وداعب كبرياءه ، واصطنع الدهشة من ان يفسد عامل ممتاز مثله مستقبله اللامع ! .. انه هو يلحظه من زمن طويل ويعد له ترقية سريعة ! .. ثم عرض عليه بصراحة ان يعينه رئيسا ، فيما بعد .. وكان العامل يسمعه فى سكون ، وكانت قبضتاه فى البداية مضمومتين ، ثم تراختا شيئا فشيئا .. فتح الرجل له باب طموح جديد ، أن ينتقل الى صف الرؤساء ..

لقد حانت ساعته للاذعان ، لكن حركة راسه كانت تعنى الرفض ، رفض رجل لاتلين له قناة .. واخيرا وعد ان يهدىء رفاقه ويقنعهم بالنزول عن مطالبهم ، دون ان يشير فى كلامه مع صاحب المنجم الى اتفاقه فى الغابة مع عمال الشركة !. وكانت نتيجة هذا التراجع السريع من زعيم الحركة أن انصرف مائة وعشرون عاملا وهم ثائرون عليه ومصرون على قرارهم الذى دفعهم الى اتخاذه فى البداية ، ونزلت الاغلبية الى العمل ..

وصرخ « شافال » فى « كاترين » التى كانت تنتظر دورها فى النزول الى قلب المنجم :

ـ ماذا تفعلين عندك ؟ هل لك أن تخرجى من تسكعك وتنزلى ! ! .



ـ ٢٠ ـ

فى الساعة العاشرة روع الذين يعملون فى بطن المنجم بدوى مريب ، ثم رأوا أحد الاسطوات يجرى وهو يصرخ :

ـ انهم يقطعون الاسلاك ! .. عمال مونتسو يقطعون الاسلاك ! . ليخرج الجميع ! .

فتراقصت المصابيح وانطلقت الظلال المذعورة تتخبط فى الظلام باحثة عن خلاصها ، لم يتخلف عن هذه الحركة الجماعية غير «شافال» الذى اوقف صاحبته كانه يريد ان يظل فى قلب المنجم ولا يخرج لمواجهة عمال الشركة الذين واعدوه فاخلف وعده وخانهم .. لكن صوت الاسطى ارتفع من جديد :

ـ ليخرج الجميع ! . الى السلالم ! . الى السلالم ..

وحملتهما الموجة المجنونة المتخبطة الصاعدة فى أكثر من مائة سلم متعاقبة ، فلما بلغت « كاترين » السلم الثانى والثلاثين احست ان ساقيها وذراعيها تتصلب ودار براسها دوار ولم تعد تطيق تشنج عضلاتها ، وفكرت فى انها لن تصل سالمة الى نور النهار ، بل تسقط الى الموت وراسها الى اسفل .. واستمر ذلك الصعود الاليم اللاهث نصف ساعة بلغوا فيه السلم التاسع والخمسين ، ففكرت المسكينة :

ـ لا يزال أمامنا ثلاثة واربعون ! .

ولم تعد تشعر بحركاتها ، وزاد فى محنتها ان الذين كانوا تحتهـا اخذوا يدفعون من امامهم ، والعمود الطالع كله هاجه الغضب المتزايد النابع من الرعب والاعياء والشوق الى وجه الشمس ..

وفجاة سقطت فصرخت باسم « شافال » الذى كان يتقدمها فى نداء يائس ، لكنه لم يسمعها ، اذ كان يقاتل ليشق طريقه بالقوة فوق زميل من زملائه ، فداسها الاخرون حيث سقطت .. وارادت ان تقاوم وتنهض ، وظلت من جديد ترقى السلالم حتى وجدت نفسها آخر

الامر وسط جمهرة زاعقة تزار فى وجهها ، فى بهرة الشمس .. كان هؤلاء هم المضربون الذين جاءوا فى نحو خمسمائة رجل وامرأة على راسهم « اتيين » وقالوا لصاحب المنجم بلسان رئيسهم :

ـ لم نأت لنلحق بك اذى ، لكن العمل يجب ان يتوقف فى كل مكان

ـ ان « رجالى » لن يصعدوا من« تحت » الا اذا بدأتم بقتلى !

ـ اتوسل اليك يا سيدى أن تصدر الامر لعمالك بالصعود ، فانى لا اضمن من معى ، وتستطيع أنت أن تتجنب الشر ...

ـ اليكم عنى ! هل اعرفكم ؟ لستم من رجالى ، ولا أجادل لصوصا يجوبون البلد لينهبوا البيوت ! .

فغطت على صوته زمجرة الرجال وشتائم النساء واقتحموا الباب، فشده رجاله فى اللحظة الاخيرة الى الوراء وهو يقاومهم ، واندفع المد المكتسح من الباب الى رحبة المنجم الداخلية ، ووجد « اتيين » نفسه عاجزا عن السيطرة على جماعته ، فراح يصرخ محذرا من الاقدام على أى تخريب عقيم ..

لكن صوت المرأة « لابروليه » الحاقد ارتفع رغم التحذير :

ـ الى المراجل لنطفىء نيرانها !

وصوت « ليفاك » وهو يصرخ فى رفاقه :

ـ لنقطع الاسلاك! . لنقطع الاسلاك ! ..

ولم يبق من يحتج غير « ماهوى » و « اتيين » الذى كان يصرخ :

ـ لا ! كيف نقطع الاسلاك وهناك رجال ونساء « تحت » يا رفاق !. لا ! لا ! ..

فيجيبه زئير واصوات من كل صوب :

ـ ليكن ! . كان عليهم الا ينزلوا ! . وحسن أن نصنع هذا بالخونة !. اجل ، ليظلوا هناك ! . ثم ان عندهم السلالم ؟

وبدا تنفيذ هذا الراى ، لكن المرأة « لابروليه » التى كان رجلها قد لقى حتفه ذات يوم بعيد فى الاعماق السوداء كانت قد اختفت وهى لا تزال تزعق فى النساء :

ـ يجب ان نقلب النيران ؟ . الى المراجل ! .

وتبعها نساء رحن يفرغن الافران من وقودها بالجاروف ويقذفن بفحمها المتقد على الارض ..

وفتح « جانلان » حنفيات التفريغ فانبثق البخار فى عنف الرصاص ، وافرغت الصهاريج الخمسة فى شهقات كالعواصف ، واختفى المشهد كله فى ضبابة من البخار شملت النار والنساء اللاتى صرن كالاشباح ، ولم يعد ظاهرا غير الاعرج السعيد بهذا الاعصار الذى اطلقه ..

وكان العمال الثائرون وهم يجوسون خلال المنجم يتكلمون عن تحطيم الآلات وتخريب المنجم ، فقاومهم « اتيين » قائلا انه يكفيهم قطع الاسلاك واطفاء النار وتفريغ الصهاريج ، فان ذلك وحده كاف لجعل استئناف العمل مستحيلا ..

وعندما بدأ العمال الذين صعدوا فى السلالم بعد قطع اسلاك الاقفاص يظهرون قابلهم عمال مونتسو هاتفين بسقوط الخونة ، فكانوا يطرفون بعيونهم قليلا فى نور النهار ـ بعد تلك الساعة الطويلةالفظيعة فى ظلمة السلالم ـ ثم ينسلون جاهدين ان يبلغوا الطريق ويهربوا ..

ـ ليسقط الخونة ! .

ـ ليسقط الاخوة المزيفون ! .

واصطف المئات من عمال الشركة صفين كى يجبروا هؤلاء الخارجين على حق الزمالة على المرور فى هذا الممشى الثائر ، وكلما بزغ عامل جديد لقيته صيحات الاستنكار والدعابات الغليظة .. انظروا هذا الذى طول ساقيه ثلاث بوصات تاتى بعدها على الفور مؤخرته ؟ .. وهذا الذى اكلت انفه نساء « البركان » ! وهذا الاخر ، الكبير الذى لا ارداف له ! .. وتحولت الدعابات الى قسوة وكادت تنهال اللكمات .. لكن « اتيين » اندفع فى غيظ نحو « شافال » عندما رآه وصرخ فى وجهه :

ـ اهذا هو موعدك الذى جئت بنا اليه ؟ ؟

ـ خذوه ! . الى البئر ! . الى البئر ؟ .

وشحب « شافال » عندما هجم عليه الرجال وتلعثم من الخوف محاولا شرح موقفه ، لكن « اتيين » قطع كلامه وقد اخرجه الغضب عن طبعه وجرفته غضبة الجماعة :

ـ لقد اردت ان تكون من اهل البئر ، وسيكون لك ذلك ؟ .. هيا !. الى الامام يابغل ! ..

وظهرت « كاترين » مجهدة دامية الراحتين فما ان راتها امهـا حتى اندفعت نحوها رافعة يدها :

ــ يا قذرة ! . امن اجــل عشيقــك تخونين امك التى تموت من الجوع ؟ . .

لكن « ماهوى » امسك بذراع امراته ومنع الصفعة ، لكنه ايضا وبخ ابنته العاقة . .

. ــ الى الابار الاخرى ! . الى الابار الاخرى ! . .

وكان ذلك صوت « اتيين » نفسه ؟

والتفت الى « شافال » وهو فى قبضة الرجال :

ــ وستأتى معنا ايها الخنزير القذر ! . .

واجبروه على السير بينهم ، وصاحبته تجرى وراءهم خائفة على حياته . .

واندفعوا كالاعصار ! . .




- يالقذرة ! .. أمن
اجل عشيقك تخونين
امك التى تمـوت
من الجـوع ! ..

كان عددهم قد بلغ الالف ، فساروا على الطريق بزعامة « اتيين » وهم يفيضون منه فى حقول البنجر ، وفى المقدمة الولد « جانلان » وقد رفع نفيرا عثر عليـــه فى المنجم واخـــذ ينفث منه موسيقى بربرية ، والنســاء فى الصفوف الاولى مسلحات بالعصى ، ومن ورائهن الرجال بقضبان الحديد ، تعلوها بلطة وحيدة يرفعها « ليفاك » فوق الرءوس فيبرق حدها فى الشمس كالمرآة ..

وعندما بلغوا منجم « مادلين » كان عددهم قد بلغ الفا وخمسمائة، فقذفوا العمال الخارجين منه بالحجارة ، وانقذت هذه المطاردة مهمات المنجم فلم يلمس أحد اســــلاكه أو مراجله ، وانحسر عنه المد لينقض على منجم « كريفكور » المجاور له حيث جلد النساء احدى العاملات بعد ان شقوا بنطلونها من الخلف عن اردافهـــا امام الرجال الذين كانوا يضحكون ، وتلقى عدد آخر من عمال ذلك المنجم صفعات ادمت انوفهم ..

وتهيأ الجمع بعد ذلك للهجوم على منجم « سان توماس » الحديث الذى لم يبلغه الاضراب ، ويبلغ عدد عماله نحو سبعمائة رجل ، لكن الاشاعة سرت بان هناك جندرمة ، فتحول الاتجاه الى منجم « فيترى كانتل » ثم تحول مرة اخرى بصورة تلقائية الى منجم « لافكتوار » اقرب هذه المجموعة من المناجم الى بلدة « مونتـــو » نفسها .. لكنهم وجدوا ان عمال ذلك المنجم قد اتموا « الوردية » وانصرفوا ، فلما لم يجدوا هناك وجه خائن واحد يصفعونه هاجموا الاشياء ، فخلع الرجال القضبان وحطمت النساء المصابيح ، ولم يجدوا فى « الكانتين » الذى غزوه خبزا ، وكان كل ما وجدوه قطعتين من اللحم النيىء وكيس بطاطس ونحو خمسين زجاجة خمر « الجنيبفر » ما لبث ان اختفت فى البطون كنقطة ماء شربها الرمل ، واحمرت العيون بسكر سيء ،

سكر الجياع ، وبرزت من بين هذه الشفاة الذابلة أنياب الذئاب . . وفى منجم « جاستون مارى » قلبت الافران وافرغت صهاريج المراجل واكتسحت المبانى ، ثم تناول « اتيين » مطرقة ووضعها فى يد أسيره « شافال » قائلا له امام طلمبة المنجم :

ــ لك الضربة الاولى ! . هيا . . لقد اقسمت فى الغابة مع الاخرين!

وظلوا يضربون الطلمبة بكل ما فى أيديهم حتى انبثق الماء ، ثم ناول أسيره خنجرا واشهر هو خنجره قائلا له :

ــ لنصف هذه المسالة بيننا نحن الاثنين ! . .

وتذكرت « كاترين » وهى ترقب صراع الرجلين فى اعياء ورعب اعتراف « اتيين » لها بميله عندما يسكر الى افتراس انسان ، فاندفعت نحوه وصفعته بيديها وهى تصرخ فى وجهه مختنقة باستنكارها :

ــ جبان ! . جبان ! . تريد ان تقتله وهو بهذه الدرجة من الاعياء والتفتت نحو ابيها وامها ، والتفتت نحو الاخرين :

ــ انتم جبناء ! . جبناء ! . اقتلونى اذن معه ؟ . اما ان لمستموه مرة اخرى فانى انا اثب فى وجوهكم ؟ . .

ووقفت امام رجلها تحميه ، ناسية ضربه ، ناسية بؤسها ، متسامية بفكرة انها تخصه مادام قد اخذها ، وانه من العار لها ان يهينوه هكذا . . وشحب « إتيين » تحت صفعاتها وسكت ، ثم قال فجاة لصاحبها وسط سكون عظيم :

ــ الحق معها ، هذا يكفى ، فاذهب ! .

وفى الحال انطلق « شافال » يجرى وانطلقت صاحبته تجرى وراءه، ثم بدأ الجمع الكبير يتحرك مرة أخرى ، فقد قاربت الساعة الخامسة وصرخت البطون والافواه طالبة الخبز ، وكان القصد فى هذه المرة الى بلدة « مونتسو » نفسها :

ــ الى الادارة ! .

ــ الخبز ؟ . الخبز ! . الخبز ! .

وفى تلك الساعة كان السيد « هينبو » قد اتخذ مجلسه أمام النافذة فى حجرة مكتبه ، ولم يكن معه فى البيت غير الخادم «هيبوليت» والطباخة المنهمكة فى اعداد وليمة العشاء التى يقيمها سادتها فى ذلك المساء ، عندما تلقى أنباء غزو العمال المضربين للمناجم والخسائر التى

احدثوها بها .. واراد ان يرجع الى مذكرة كان قد رجا « نيجرل » أن يحررها لارسالها الى المحافظ ، فلما لم يجدها بين اوراقه خطر له انه ربما يعثر عليها فى حجرة ابن اخيه ، فصعد للبحث عنها هناك ..

ودخل فوجد زجاجة عطر زوجته فوق فراش الشاب المهوش !

لابد اذن انها كانت هنا وانها هنا كل ليلة ! .. وسقط فوق الكرسى وهو يحدق فى حالة الفراش وظل على هذا الحال فترة قبل أن يجذبه الواقع الخارجى فنزل ليواجه مسئوليته ..

ومن تعليمات الشركة ادرك انها ترحب بوقوع الاضطرابات لانها ستعجل بانهاء الاضراب بالقمع الحاسم ، ومن تلك اللحظة لم يعد يتردد ، فارسل برقية الاستنجاد الى المحافظ ، واستكن فى بيته حتى افزعته فى الساعة الخامسة ضوضاء تدنو من نافذته ، ثم سمع الصيحة الفظيعة :

ـ الخبز ! . الخبز ! . الخبز ! .



— ٢٢ —

أقبل المضربون الجياع لغزو البلدة بينما كان رجال الجندرمة الذين يطاردونهم عبثا منذ الصباح قد توجهوا بهمة الى منجم « فورو » الذى خيل اليهم انه سيكون الهدف التـــالى للكتلة الجائعـــة الزاحفة .. وكانت الالاف السكرى بالجوع قد مرت بمزرعة صغيرة كانت تزورها زوجة المدير ومعها « نيجرل » و « سيسيل » وابنتـا « دينولان » فرات زوجة المدير ومن معها من مخبئهم مرور ذلك الموكب الخارق كأنه اعصار من الحركات والصرخات ، وفى طليعته نحو الف امرأة مهوشات الشعر فى اسمال تكشف الجلد العارى ، عرى اناث مجهدات ، وفيهن من تحمل صغيرها بين ذراعيها وترفعه وتهزه فوق الرءوس كأنه راية الحداد والانتقام .. واخريات اكثر شبابا ولهـن صدور محاربات بارزة يشهرن عصيا .. بينما عجائز النســوة ، الفظيعات ، يصرخن عاليا فتبدو عروق اعناقهن الهزيلة كما لو كانت لتمزق ..

ثم جاء الرجال — الفان هائجان — كتلة كثيفة تتحرك حركة واحدة غابت تفاصيلها فى مجموعها .. وفوق الرءوس . وسط غـابة من القضبان الحديدية ، مرت بلطة مرفوعة وحيدة . لواء الجماعة ، ولها فى السماء الصافية منظر جانبى حاد كأنه نصل مقصلة ..

والغضب والجوع وشهران من العذاب كانت كلها قد أطالت وجوه هؤلاء البسطاء المسالمين فجعلت لها اشداق وحوش ..

لقد رات السيدة ومن معها — من خلال الواح باب المزرعة — رؤيا الثورة الحمراء التى ستحملهم كلهم حتما فى ليلة دامية من ليالى نهاية القرن هذه .. أجل ! ذات مساء سيثب الشعب هكذا وينثر ذهب الخزائن ويشق بطونها عن كنوزها !.. وسيتعالى صراخ النســاء وتكون للرجال اشداق الذئاب ، مفتوحة للعض .. اجل ! ستكون نفس الاسمال ويكون نفس الرعد ولا يبقى حجر قائما .. لقد مروا بهذا

الطريق كانهم قوة من قوى الطبيعة ، فتلقى هؤلاء القوم المترفــون ريحهم الفظيع فى وجوههم ..

ــ الخبز ! .. الخبز ! .. الخبز ..

ووقف المدير ينظر من وراء شيش نافذة ابن أخيه المغلقة الى هذا الجمع المزمجر الذى يصفه بالكسول وبالاكرش وبالخنزير القــذر ، وبمنطق الشبعان الاعرج الغبى راح يعجب لهم ما الذى أطلقهم هكذا فجاة من قناعة الغرائز المطمئنة ! .. وعنده هو ، فى هذه اللحظة ، كان الخير الوحيد فى الدنيا بالنسبة له هو عدم الوجود ، فاذا كان لا مفر من الوجود فشجرة او حجر ، بل اقل من هذا ، حبة رمل لا يمكن ان تدمى تحت نعال المارة ..

واخذت الحجارة تصفع واجهة بيته ، واذا برجل واقف علىعتبة خمارة قريبة من الميدان كانت صاحبتها قد بادرت باغلاق نوافذها ، تاركة الباب وحده مفتوحا ، اذا بهذا الرجل ينادى على « اتيين » فى شماتة :

ــ لقد انذرتك وها هى المتاعب تبدا .. الان تستطيعون ان تطالبوا بالخبز ، وسيكون الرصاص هو ما تاخذون !

فأجاب « اتيين » فى جفاء على شماتة « راسنير » !

ــ انما يضايقنى الجبناء الذين ينظرون الينا ونحن نخاطر بحياتنا وهم معقودى الاذرع !..

ــ هل فكرتك اذن هى ان تنهبوا هذا البيت ؟ ..

ــ فكرتى هى البقاء الى النهاية مع الاصدقاء ، حتى لو هلكنا كلنا معــا ..

وعاد يصرخ فى الجمع الهائج قائلا انه لن يفيدهم شىء ان يحطموا زجاج النوافذ ، لكن لم يكن هناك من عاد يطيعه ، حتى « جــانلان » راح يعلم « ليدى » و « ببير » كيفية استخدام المقلاع .. أما امراة « ليفاك » وجماعتها فكان يحركهن هياج اعمى ، فهن بارزات الاظــافر والاسنان ، نابحات ..

وفى تلك اللحظة اقبل « آل جريجوار » لزيارة بيت المدير فتركهم العمال يدخلون ، كما تسلل « ميجرا » الى بيت المدير محتميا به من هجوم «الغوغاء» على متجره وشخصه ، لكن المدير نصحه ببرود ان

يعود للدفاع عن بضائعه !.. ولم يتحرك التاجر من مكانه متوقعـــا ان يمزق اذا خرج .. كان عنقه لا بضائعه هو الان فى الميزان !

وطال هذا الحصار فبدأ المدير المتوتر يتكلم عن الخروج وحده لطرد المحاصرين ، واخيرا اقبلت زوجته بجماعتها فدخلت « لوسى» و «جثن» ابنتا « ديمولان » و « نيجرل » مع « المدام » فى هدوء ، لـــكن « سيــل » استولى عليها رعب جعلها تقذف بنفسها فى قلب الخطر ، فاحاطت وجوه صارخة بثوب من الحرير ومعطف من الفراء وريشة بيضاء فى قبعة ، وتركز السخط على هذا كله وعلى عطر يفوح وساعة رشيقة وجلد ناعم ، جلد منعمة كسول لا تلمس الفحم ! ..

ــ هذا هو ما يسرقونه منا ! ..

ــ سلموها لى عارية تماما ، حتى نعلمها كيف تعيش ! ..

قالت ذلك امراة « ليفاك » فجاوبتها « موكيت » فى اندفاع :

ــ اجل ! اجل ! يجب ان نجلدها ! ..

وكانت « سيــل » ترتعد كلها وسط هذه العاصفة من الهياج وهى تردد عشرين مرة :

ــ سيداتى ! .. اتوسل اليكن ، سيداتى ، لا تؤذونى ؟

لكن يدين باردتين كانتا قد اخذتا بعنقها ، اذ كانت الموجة البشرية قد دفعت بها الى ناحية « الموت الطيب » الذى كان يبدو ثملا من الجوع ومشدوها من بؤسه الطويل ، خارجا فجاة من اذعان نصف قرن ، خاضعا لدفعة حقد لا يفهمها ازاء هذا العنق الابيض ، وكأن به حاجة قاهرة الى ان يضغط ويضغط باصابعه ، كحيوان مشوه شائخ يجتر ذكرياته .. وفى الوقت نفسه كانت النساء مصرات على كشف مؤخرتها .. والمجتمعون فى الداخل وقد تنبهوا الى انها لم تدخل مع الاخرين اصابهم هوس من الخوف عليها ..

واندفع المدير وابن اخيه وفتحا الباب ، لكن الجموع قذفت بنفسها فى الحال على بوابة الحديقة ومنعتهما من الخروج ..

وظهر على سلم البيت والد البنت ووالدتها ، فاستطاع « اتيين » اخر الامر ان يخلصها من اصابع العجوز وايدى النساء ، اذ واتاه الهام لتحويل السخط قبل ان تمزق البنت تمزيقا ، فرفع البلطة التى كان قد انتزعها من قبضتى « ليفاك » وهو يصرخ عاليا :

ـ الخبز كثير فى دكان « ميجرا » فلنحطمه ولنسوه بالارض !

وكان « ميجرا » فى مخبئه ببيت المدير قد بلغ ذروة الخوف على بضائعه التى راح يتخيلها وهى تنهب ، وادراجه وهى تفتح وتغتصب. والاكياس تشق بطونها ، وكل شيء يؤكل ويشرب ، فلن يتركوا له حتى عصا يتسول بها خلال القرى !.. فهرز كالمخبول وتسلل من حديقة بيت المدير الى سقف مخزن مجاور ، طامعا ان يصل عن ذلك الطريق الى شباك بيته ، لكن الجموع راته فوق سقف المخزن العالى ، فهللت وزارت .. والرجفة التى اصابت الرجل جعلت قبضتيه تفلتان حيث كانتا تمسكان فهوى وتلقفه جدار قذف به على جانب الطريق وقد انبثق مخه من جمجمته المكسورة ، وامراته تنظر شاحبة من وراء زجاج الشباك ..

حدثت لحظة من الروع ونسوا الدكان وتعلقت الابصار بذلك الجدول الرقيق الاحمر الذى كان يتدفق من الرجل الميت ، ثم احاط النساء بالجثة ليشتمنها ويتشفين فيها .. كنا مدينات لك ، فها انت ايها اللص قد قبضت !.. وما من امراة فيهن الا احست بالفرح ..

ـ انتظر يا لص !.. ينبغى ان ازيد فى سمنتك !.

كذلك قالت امراة « ماهوى » التى طالما اذلها ، وباصابعها العشرة نبشت الارض وتناولت من ترابها قبضتين ملأت بهما فم الميت فى عنف :

ـ خذ !.. كل يا من كنت تاكلنا ..

والميت راقد على ظهره وهو ينظر فى جمود بعينيه الواسعتين الثابتتين الى السماء التى يسقط منها الليل .. هذا التراب الذى حشى به فمه هو الخبز الذى اباه على الجائعين ، ولن ياكل بعد الان الا من هذا الخبز .. واندفعت المخبولة « لابروليه » فانتزعت من جسم الميت مزقة دامية ولوحت بها بضحكة انتصار ، وحيت اللعنات هذه الغنيمة البشعة ، وتذكرت كل امراة انها لن تاخذ بعد اليوم خبزا وتدفع الثمن من عفتها ، وهللن للحيوان الشرير الذى قضين عليه اخر الامر وتحررن منه .. ورفعت المخبولة مزقة اللحم الدامية على عصاها ومشت بها كالراية فتبعتها النسوة ، على حين كانت زوجته من وراء شباكها تتامل المشهد فى جمود ..!

وفجأة ظهرت « كاترين » وهى تعدو فى فزع قائلة ان الجندرمة فى الطريق وان « شافال » هو الذى ذهب فجاء بها ، وقالت « لاتيين » فى شبه اعتذار :

ـ انج بنفسك . فأنا مشمئزة منه ولا أريد ان يأخذوك !..

وسمعوا وقع ركض الخيل ففروا حتى لم يبق على الطريق غير الجثة ، بينما كان البورجوازيون غارقين فى عرقهم فى البيوت المغلقة واسنانهم تصطك دون ان يجرءوا على القاء نظرة ..

كان السهل يغرق فى الليل الكثيف ورجال الجندرمة يبرزون وهم يحرسون عربة حلوانى « مارشيين » التى كانت تحمل الحلوى الى وليمة بيت المدير !



ـ ٢٣ ـ

تولت حراسة آبار المناجم وآلاتها مراكز مسلحة ، واقيمت الحراسة على بيت المدير وبيوت بعض الاعيان ، ولم يعد يسمع على ارض الطرق غير مرور الدوريات البطىء ، وفى كل ساعتين كانت تدوى صيحات الحرس :

ـ قف من أنت ! .. تقدم بكلمة السر ! ..

وفى برد منتصف فبراير كان العمل لا يزال متوقفا فى كل مكان ، وكان العناد الصامت يواجه استعراض القوة ..

واستكن العمال فى البيوت فى ذلك الهدوء الكاذب وتلك الطاعة المغتصبة الصبورة لوحوش فى قفص تركز عيونها على المروض متاهبة لاكل عنقه اذا ادار ظهره .. وتحت هذا السلام الكبير العابس ظلت المعركة على هذا المستوى بين المضربين الصامتين والمناجم الميتة المحروسة بالقوة المسلحة ..

وكان التحقيق قد اثبت ان « ميجرا » مات من سقطته ، والشركة من جانبها لم تشأ أن تعترف بخسائرها واكتفت بان أعدت كشفا بالمفصولين وأرسلت بطاقات اربعة وثلاثين عاملا من محلة العمال رقم ٢٤٠ وحدها ، ومن بينهم « ماهوى » و « ليفاك » .. لكن كل الحزم كان موجها الى « اتيين » الذى كان قد اختفى منذ مساء الحادث والذى كانوا يبحثون عنه دون أن يعثروا على اثر ..

وكانت الايام تمر وفى الجو احساس بانتظار النهاية ، أما الزعيم المختفى فقد عاش تحت الارض فى جحر « جانلان » الذى ابدع فى تموينه ، وصار الغلام الاعرج مورده الحذر الفطن ، هانئا بخداع الجندرمة والضحك عليها ، فجاءه بكل شىء الا ربطة شموع عزت على يده الجريئة الخاطفة .. وفى بداية الاسبوع الثانى قال له الغلام ان الجندرمة تعتقد انه اجتاز الحدود الى بلجيكا ، فاستطاع الجراة على

الخروج من جحره عند هبوط الليل ..

كان فى شوق الى الحرية .. وكان من رأيه أن شهرا ثالثا من المقاومة يكفى للقضاء على الشركة التى ساءت حالة مناجمها ، لكنه فى الليلة التالية عاوده اليأس عندما علم ان مندوبى الشركة يفاوضون «دينولان» لشراء منجمه !.. ما هذا الغول الذى لا يشبع !.. يا للنفوذ الهائل لرءوس الاموال الكبيرة ، وكم هى قوية فى المعركة ! .. انها « تسمن » حتى فى الهزيمة بان تاكل جثث الصغار الذين يسقطون الى جوارها فى المعركة ! ...

وعند منجم « فورو » كان يقف جندى شاكى السلاح ، ففكر « اتيين » فى الظلام وهو قريب :

ــ ولد صغير أشقر بوجه هادىء شاحب مبرقش بالنمش ، لماذا لا اكلمه واجس نبضه ! ...

وببساطة من لا يكترث ظل يقترب من الجندى وهو يلتقط قطع الخشب القديمة من الارض ، وظل الجندى جامدا .. ثم كلمه ، لكن الجندى لم يكن ليفهم شيئا اكثر من انه اذا صدر له الامر باطلاق النار فهو يطلق النار ، حتى لا يعاقب .. لا فائدة !

وكان الثلج يكسو ذلك البلد الاسود ببياض لا نهاية له ، ولم يكن هناك خيط واحد من الدخان يتصاعد من اسقف المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال ، التى كانت بيوتها الخالية من النار فى برودة احجار الطريق ، كانها رؤيا قرية ميتة ملفوفة فى كفنها ..

وعلى طول الطرق كانت الدوريات التى تمر هى وحدها التى تترك اثار اقدامها الموحلة ، ثم لا فحم ولا بترول فى كل بيت ، ولا طعام !..

وفى بيت «ماهوى» كان « الاب رانفييه » القسيس الجديد ــ دون ان يدهشه هذا البيت الميت الخالى من النور والنار والخبز ــ يحدث الاسرة قائلا ان الاغنياء سرقوا سلطة الله ، وانه هو لا يفعل مثل القس الاخرين ، فهو لا ياكل فى بيت المدير ، وهو ايضا ثائر ، ثائر انجيلى .. لكن « ماهوى » اسكته فى زمجرة :

ــ لا جدوى من كل هذا الكلام ، وكان اولى لك ان تبدا بان تحمل لنا رغيفا !..

وجاء « اتيين » بعد انصراف القسيس ، على مألوف عادته فى قلب

الليل ليزور هذه الاسرة الصديقة التى عرفت وحدها مخباة وحفظت سره .. وكان هذا المجهول الذى انتهى اليه امره قد احاطه باسطورة تقول انه سيعود الى الظهور ومعه نجدة وصناديق ذهب ، اذ كان ايمان الاغلبية به باقيا .. لكن البؤس الذى يفعم هذا البيت ملأ نفسه يأسا فلما دار كلامهم حول تفكير الشركة فى استخدام عمال من بلجيكا بحماية القوات المسلحة ، بدا هو يشير من طرف بعيد الى الاستسلام ، لكن امراة « ماهوى » نفسها انفجرت صارخة فى وجهه :

ـ ماذا تقول ؟!.. انت من يقول هذا !.. اذا كررت هذا الكلام فانى أنا المراة بيدى أن اصفعك !..ابعد كل ماعانيناه نعود خانعين الى الظلم ؟. لا ! .. لا !. انى انا الان اقتل واحرق ولا اسلم ابدا !..

واشارت الى رجلها القابع فى العتمة بحركة مهددة :

ـ واذا عاد رجلى الى المنجم فسوف انتظره على الطريق لابصق فى وجهه وادعوه بالجبان !..

وتراجع الشاب أمام هذا الغضب الذى هو خالقه فى البداية ، ليس هو الان الذى يتكلم فى السياسة بل هى هذه المراة بنت الشعب التى تنادى بالجمهورية وتخليص الارض من اللصوص الذين يسمنون من عمل الجياع ! ..

هاهى ذى تتكلم مرة اخرى :

ـ أجل !.. انا !.. بأصابعى العشرة سأسلخهم .. لقد كفانا استسلاما ولقد جاء دورنا .. وانت نفسك كنت تقول هذا .. انى عندما افكر فى الاب والجد وابا الجد قد تعذبوا كما نتعذب ، وان ابناءنا واحفادنا سيعانون ايضا نفس العذاب ، فان هذا يجعلنى مجنونة تبحث عن سكين .. وما فعلناه فى ذلك اليوم لم يكن كافيا ، كان ينبغى ان نهدم « مونتسو » ونسويها بالارض الى آخر حجر فيها .. وانى لنادمة لانى لم اترك العجوز يخنق تلك الناعمة ، كما يتركون هم الجوع يخنق صغارى انا !..

سقطت كلماتها فى هذه المرة كضربات البلطة ، فحياها الشاب فى خشوع :

ـ لقد اسات فهمى .. انما اريد ان نصل الى اتفاق مع الشركة التى ساء حال مناجمها ولاشك فى انها تقر التسوية ..

فزارت المرأة :

ــ لا !.. لاشيء من هذا ! ..

وكان العجوز « بون مور » يصغي الى ثورة زوجة ابنه وهو محتفظ بجمود شجرة معمرة انحنت بفعل الريح ، بينما كان زوجها يتمشى دون ان يتلفت ، بين خزانة الطعام الخاوية والموقد الميت ..

وساد الصمت لولا بكاء الصغار من الجوع ..!



— لو ان يدى ملكت لاخذت الارض ، هكذا وحطمتها فتـاتا حتى تدفنوا جميعا تحت الانقاض !..

كان الفوضوى « سوفارين » يكلم « اتيين » الذى لجأ اليه يستفتيه فى حدث جديد داهم هو وصول العمال البلجيكيين فى الليل وموجـة اليأس العارمة التى احدثها وصولهم .. كان من رأيه الا فائدة من كل هذه السخافات .. ان عمال القبعات فى مرسيليا الذين ربحوا مائة الف فرنك فى جائزة اليانصيب الكبرى قد اشتروا فى الحال عقـارا قائلين انهم سيعيشون بعد ذلك دون أن يعملوا شيئا !.. اتفهم هذا ، انت ؟.. هذه هى فكرتكم ، كلكم ، يا عمال فرنسا ، ان تدفنوا كنزا حتى تأكلوه وحدكم فيما بعد ، فى ركن من الانانية والكسل ..

ومهما صرختم ضد الاغنياء فان الشجاعة تنقصكم فلا تـردون للفقراء المال الذى يبعث به الحظ اليكم .. ولن تكونوا ابدا جديرين بالهناء ما دام لكم شيء تملكونه وما دام حقدكم على الظالمين لا ينبع الا من حاجتكم المسعورة الى ان تكونوا بورجوازيين فى مكانهم !.. وكلكم محصودون يوم يولد ذلك الذى سيعدم جنسكم ، جنس الجبنـاء والمستمتعين !.. وكانا يتكلمان فى الخمارة ، فحدث صمت طال حتى عكره ظهور « شافال » فجأة وهو يدفع « كاترين » أمامه ، وكان قـد سكر فى جميع خمارات « مونتسو » ثم جاءته فكرة الذهاب الى خمارة « الافنتاج » ليظهر للاصدقاء القدامى أنه ليس خائفا ..

ودخل وهو يقول لعشيقته :

— ستشربين هنا كاسا وانا اكسر بوز أول من ينظـر الى بجنب عينه ؟

ودهش من وجود « اتيين » عند « راسنير » ومن تصافيهما بعد ما كان بينهما ، واخذت « كاترين » هى الاخرى عندما رات الشاب ، لكن صاحبها تهكم :

ـ مدام « راسنير » ! علينا بالبيرة فاننا نحتفل باستئناف العمل غدا فى كل المناجم !..

والخمار والرجلان الاخران لم يتحرك احد منهما من مكانه ، لتطاول « شافال » السكران :

ـ أعرف قوما قالوا انى جاسوس ، وانتظر منهم أن يكرروا هذا القول أمامى ، حتى نتفاهم اخيرا !

لم يرد أحد ، وادار الرجال رءوسهم وتاملوا الجدران ، فاستمر بصوت أعلى :

ـ هناك الكسالى وهناك غير الكسالى .. وانا ليس عندى ما أخفيه ... لقد تركت منجم « دينولان » وسوف انزل غدا فى منجم « فورو » مع اثنى عشر بلجيكيا تحت امرتى ، لانهم يقدروننى .. فاذا كان لاى شخص اعتراض على هذا فانه يستطيع ان يقولها ، وسنتكلم ..

فلما قوبل تحديه بنفس الصمت المترفع تفجر غضبه على صاحبته نفسها :

ـ لنقرع كاسينا نخب هلاك كل السفلة الذين يرفضون ان يشتغلوا !..

واخرج من جيبه قبضة من العملة وعرضها بمفاخرة السكران قائلا انه بعرق المرء يكسب هذا ، وانه يتحدى الكسالى ان يبرزوا نصف فرنك ! . وعند هذا الحد نهض له « اتيين » فى حزم هادىء :

ـ اسمع !.. انت تضايقنى آخر الامر !.. اجل انت جاسوس ونقودك يفوح منها نتن الخيانة ، ويقرفنى ان المسك ، لكن لا باس !.. فلقد وجب ان ياكل احدنا الاخر ..

فضم « شافال » قبضتيه :

ـ اخيرا !.. يجب ان يقال لك الكثير حتى تثور حميتك يا جبان !..

وتقدمت البنت بينهما بذراعين متوسلتين وان كانت قد احست فى هذه المرة ضرورة المعركة ، ثم تقهقرت من نفسها دون ان يدفعاها واستندت الى الحائط ..

وببساطة رفعت زوجة صاحب الخمارة كئوسها حتى لا تسكر ، ثم جلست فى مكانها دون أن تبدى فضولا غير مناسب ..

وتدخل «راسنير» وعاند فى تدخله حتى اخذه « سوفارين » من كتفه ورده الى المنضدة وهو يقول له :

ـ هذا لا يعنيك ، فان احدهما زائد ، والبقاء للاقوى !..

واشتبك الرجلان فى ملاكمة طالت قبل أن يصرع « اتيين » الشاب المتحدى بلكمة ألقته على ظهره، لكنه ما لبث ان جمع نفسه وهجم من جديد وقد ندت عن حلقه زمجرة وحشية ، وخرجت يده من جيبه فما ان راتها « كاترين » حتى انطلقت من قلبها بالرغم منها صرخة كبيرة ادهشتها ، كما لو كانت اعترافا بايثارها احد الرجلين على الاخر، ذلك الايثار الذى كانت هى نفسها تجهله :

ـ خذ حذرك !.. ان معه السكين !

تفادى الطعنة الاولى وقبض على معصم خصمه ودار بينهما صراع انتهى بسقوط السكين الى الارض والتقاط الاول لها فأمسك بغريمه تحت ركبته وهدده بفتح حلقه :

ـ هذه نهايتك ايها الخائن !..

وكان صوت الوراثة فى تلك اللحظة يدوى فى نفس « اتيين » ، صوت فظيع صادر من احشائه ، يصم اذنيه ، يضرب فى راسه بدقات مطرقة ، جنون فجائى بالقتل ، حاجة الى تذوق الدم .. لكنه لم يكن ثملا . فقاوم الشر الموروث وقذف بالسكين وراءه وأهاب بالمهزوم فى صوت أجش :

ـ انهض واذهب !..

ومسح « شافال » بجانب يده الدم الذى كان يسيل من انفه وجر ساقيه ، لكنه عندما رأى «كاترين» تريد ان تتبعه شد قامته وانفجر حقده فى طوفان من القذارات قبل ان يحذرها من وضع قدمها بعد اليوم فى بيته ، اذا كانت حريصة على جلدها .. وصفق الباب ..

وساد السكون فى الخمارة الدافئة التى لم يبق فيها غير الكرسى المقلوب ودم يشرب قطراته الرمل المنثور فوق البلاط .. وبعد قليل خرجا من الخمارة معا وسارا فى صمت .. هو وهى .. رفضت أن تعود الى بيت أهلها بعد أن تخلت عنهم ، فمشيا جنبا الى جنب فى الليل ..

وقالت له وهى تقبله :
ـ ان التنقل بين الرجال يقرفنى !.

وتبدت له الحقيقة .. صحيح انه ليس فى انتظارها عند « شافال » غير الصفعات ، لكن ماذا عنده هو احسن من هذا يقدمه لها ؟

حياة الهروب والبؤس وليل بلا غد !..

لعلها على حق ، فاوصلها فى صمت الى بيت « رجلها » وراقب البيت لحظات بعد دخولها وهو يرهف سمعه متوقعا صراخ المرأة المضروبة ، لكن نافذة فى الدور الاول اضيئت ثم فتحت وهمست منها البنت :

ـ لم يعد بعد من الخارج ، وسارقد .. اتوسل اليك ان تذهب !

وانصرف حزينا ، فلما حاذى منجم « فورو » نظر فرأى «جانلان» يقفز فجأة من الظلمة فوق كتفى الجندى الحارس فى وثبة قط متوحش ، ويغمد سكينة فى عنقه !

وكان الحادث خاطفا لم تصدر عنه الا صرخة مختنقة من الحارس ثم بزغ القمر من وراء السحب وتألق نوره على المشهد ، فاندفع « اتيين » فى ذهول ليجد الغلام القاتل على يديه ورجليه أمام الجثة المفرودة الذراعين ، والتى كان السكين لا يزال مغروسا فى عنقها الى مقبضه .. وبلكمة ناقمة القى الغلام عند الجثة ، وشفع اللكمة بركلة ، وواجه وهو يتلفت تلك السكين المغروسة فى العنق بمقبضها العظمى الذى نقشت عليه بحروف سوداء كلمة « حب » .. تنقلت نظرته من العنق الى الوجه ، فاذا به الجندى الذى تحدث اليه ذات مرة وعرف منه ان اسمه «جول» وان له اما واختا تنتظرانه فى بلدته البعيدة .. واخذته الشفقة بهذا الوجه الاشقر المبقع بالنمش ، ثم نادى الغلام الخائف المبتعد وقال له :

ـ تناول الساقين ؟ .

وتناول هو الكتفين بعد ان علق بندقية القتيل وراء ظهره ... واحتواهما الليل ..

واخيرا هبطا بالجثة فى المنجم المهجور فسارا بها كيلو مترا تحت الارض حتى وضعاها تحت صخرة تدعمها أخشاب عطنة متهاوية ، ووضعا الى جوارها البندقية ، ثم هشما الدعامات فهوت الصخرة انقاضا وسحقت تحتها الجثة سحقا بطيئا ..

نظرت البنت الى الافق فرات جمعا من الرجال والنساء مقبلا من ناحية المساكن ، ورات الجنود الستين يسدون بسلاحهم الباب الوحيد المفتوح ، وقد صفهم الضباط صفين لصق جدار المنجم الحجرى ، حتى لا يقع عليهم هجوم من الخلف ..

وكان العمال الغاضبون قلة لا يكادون يبلغون الثلاثين ، فوقفوا عن بعد يتصايحون بكلمات عنيفة مبهمة ويلوحون فى غضب ، حتى سندتهم موجة اخرى اقبلت من المساكن بقيادة « ليفاك » الذى كان يهتف بسقوط البلجيكيين .. ثم اقترب « اتيين » من الضابط وقال له انه لا جدوى من مجزرة عقيمة وان العدالة فى جانب المضربين، وكلنا اخوة ، وينبغى أن نتفاهم ..

وكان الضابط شابا طويلا نحيلا فى نحو الثامنة والعشرين ، بوجه قانط وحازم ، فقال وهو محتفظ بتصلبه العسكرى :

— لا تجبرونى على اداء واجبى ! ..

ومن وراء النوافذ ظهرت وجوه المهندس « نيجرل » ورئيس العمال « دانسايير » ثم وجه اخر هو « سوفارين » الذى لم يغادر مكنته يوما واحدا منذ بدء الاضراب ..

هذه هى النهاية ، لم يعد هناك الا القتال والموت ..

لكن موجة العمال الصاعدة اندفعت أول الامر نحو الجنود يهيبون بهم أن لسنا ضدكم فانصرفوا ، كلنا من الشعب وواجبكم انتم ايضا ان تكونوا مع الشعب .. وفى جمود استمع المسلحون الى نداء الاخوة ، ومن ورائهم كان ضابطهم قد استل سيفه من غمده عندماوجد انهم صاروا مئات وانهم يضغطون على جنوده ويهددون بسحقهم على الحائط ، واصدر امره باشهار السنكى .. فاطاعوا ، وواجه صدور المضربين صفان من اسنة الفولاذ ، وفتح « ماهوى » سترته وقميصه وعرض صدره العارى ولحمه المشعر الموشوم بالفحم واندفع نحو

اسنة السنكى فاجبرها على التراجــــع ، فظبعا بوقاحة لســـانه وبسالته . .

وقبض الجنود فى الاحتكاك على ثلاثة من بينهم «ليفاك» واودعوهم فى مكان ظاهر من حجرة رؤساء العمال ، فتعالت الصيحات طالبة الافراج عنهم فى الحال ، وتطايرت الاحجار فجرح جبين الضابط كما جرح عدد من جنوده ، وفتح فمه كى يامر باطلاق النار ، لكن البنادق كانت قد أطلقت الرصاص فى دفاع غريزى عن النفس،ثلاث رصاصات فى البداية ، ثم خمس ، ثم هزيم كتيبة كاملة ، ثم طلقات مفردة دوت وحدها بعد سكون طويل . .

ظل الجمع جامدا لا يكاد يصدق انهم اطلقوا النار ، ثم ارتفعت صرخات ممزقة وحدث ذعر مجنون وهروب متخبط فى الوحل . . وكانت « ليدى » قد اصيبت فى وجهها كما اصيب » ببير » تحت الكتف اليسرى ، فمات وهو يحتضنها . . ورصاصة اخرى قتلت المــراة «لابروليه» واخرى دخلت فى فم « موكيه » واثنتان تلقتهما «موكيت» أخته فى بطنها . . اما تلك الرصاصة الاخيرة المفردة فقد ضربت قلب « ماهوى » نفسه والقته على وجهه فى بركة ماء اسود . .

وعند هذا الحد من المعركة ظهر «الاب رانفييه » عائدا من عظته وقد رفع ذراعيه الى السماء ــ فى نقمة نبى ــ مستنزلا غضـــب الله على القتلة . . !

وتردد صدى رصاصات « مونتسو » فى باريس بدوى هائل ، وعبرت صحف المعارضة عن استنكارها ، وروت كيف جرح خمسة وعشرون وقتل اربعة عشر من بينهم طفلان وثلاث نســـاء . . اما الامبراطورية التى أصابتها تلك الرصاصات فى صميم كيانهـا فظلت تتظاهر بهدوء القوة العليا ، دون ان تتبين هى نفسها خطورة جرحها . . كان الامر عند حكومة الامبراطورية مجرد تصادم بسيط يؤسف له . . شيئا ضائعا هناك فى البلد الاسود البعيد عن الشارع البـــاريسى صانع الراى العام ، وسرعان ما ينسى ! . . وتلقت الشركـــة امرا رسميا بخنق المسالة ووضع حد لذلك الاضراب الذى تحول استمراره المقلق الى خطر اجتماعى . .

وفى الصباح وصل ثلاثة من مديرى الشركة وقيــل انهم جاءوا

مسرعين ليفتحوا للساخطين المستحقين انزعا ابوية ، وطرد العمال البلجيكيون ، واوقف الاحتلال العسكرى للمناجم ، وولدت حكاية الحارس المختفى بزعم أنه فر من الخدمة ، لكن مديرى الشركة هؤلاء لم ينسوا فى الوقت نفسه ان يستمروا فى مفاوضة « دينولان» لشراء منجمه !



كانت المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال ممعنة فى مقاومتها النافرة عندما الصقت على الجدران اعلانات صفراء كبيرة وفيها كلمات ضخمة قليلة تعلن أن جميع مناجم الشركة سيعاد فتحها صباح الاثنين، وبعد عودة العمل تفحص كل التحسينات الممكنة ، بعناية وعطف ..

لكن دم الزملاء الذى صبغ الارض بحمرته كان يسد الطريق ؛ فلم يعد الى العمل فى الموعد المضروب اكثر من عشرة من طراز «بيرون» وتركهم الباقون يذهبون ويجيئون دون ان يتعرضوا لهم ! ..

وكانت هذه المقاومة العنيدة الجديدة بلا زعامة ، فقد ذهبت مع الريح يوم المجزرة بقية سمعة « اتيين » ولم يعد يظهر دون أن تتعقبه نظرات ملتهبة توجه اليه اتهاما صامتا وغضبة مكبوتة ..

ثم بدات المحلة كلها تخرج له صارخة فى وجهه ببؤسها ..

وقال له « موك » الذى فقـــد فى المعركة ابنـــه « موكيه » وابنته « موكيت » عندما قابله :

— ألا تموت ياسافل كما مات ابناؤنا ! ..

والتقط قالب طوب وكسره وقذفه بنصفيه ؛ على حين صـــاح « شافال » الذى سره هذا الانتقام :

— كل له دوره ! ..

ووقف الشاب مذهولا يواجههم ويحاول ان يهدئهم بالكلمات التى طالما هللوا لها يوم كانوا فى يده .. لكن الايدى الساعية الى الطوب كثرت ، فان سحره كان قد ذوى ..

وحصروه عند واجهة الخمارة بعد ان اصابوه فى ذراعه ؛ فادخله « راسنير » وسد باب الخمارة بكتفيه العريضتين :

— كونوا عقلاء يا اصدقائى فانتم تعرفون انى ما خدعتكم يوما ، أنا .. كنت دائما مع الهدوء ، ولو انكم استمعتم لى لما وصلتم الى

هذا الحال ..
وواته بلاغته السهلة فاستمر يتكلم فى عذوبة الماء الدافىء المهدئة، وعاوده كل نجاحه الغابر ، واسترد بلا جهد صيته القديم ، كما لو ان هؤلاء لم يسموه منذ شهر بالجبان .. وارتفعت أصوات تؤمن على كلامه حتى فاضت المرارة بنفس الشاب المختفى داخـل الخمارة ، وتذكر نبوءة هذا الرجل فى الغابة يوم قال له ان له هو الآخر يوما تتنكر له فيه الجماهير .. ان الجموع التى خفق قلبها مع قلبه فى ليلة الغابة هى الآن التى ترجمه ! ..
انه لم يقدهم بل هم الذين كانوا يقودونه الى صنع اشياء ما كان ليصنعها بدون نشوة الجمع الزاحف وراءه !
وعند كل عمل من اعمال العنف التى مارسوها كان يغشـاه ذهول الاحداث ، فهو لم يتوقع العنف ولم يرده ، وهاهم الآن يتهمونه بانه وعدهم بحياة من الاكل والكسل ثم لم يف بالوعد !
وسمع الهتافات الحماسية فى الخارج بحياة « راسنير » الذى أغلق الباب بينما كان الجمع يتفرق ، وتبادل الرجلان النظر فى صمت ، ثم هز كل منهما كتفية ، وانتهيا بان شربا البيرة معا ..
وفى اليوم نفسه كانت هناك وليمة عشـاء كبيرة فى بيت « آل جريجوار » حيث كان يحتفل بخطبة المهندس «نيجرل» وكريمـة البيت « سيسل » فتحول هذا الحفل من تلقاء نفسه الى احتفـال رسمى بانتصار الشركة ..
وتبودلت الانخاب ! ..
الآن ياكلون وينامون فى سلام ! ..
وكان فى المدعوين «دينولان» وابنتاه ، وكان فى ذلك الصباح قدوقع عقد بيع منجمه للشركة دون أن ينتزع من انيابهـا أكثر من المبلغ اللازم لتسديد ديونه لكنهم احتفظوا به فى المنجم بوصفه مهندسا اجيرا ..
وعندما انتقلوا بعد الاكل الى الصالون لشرب القهوة انتحى السيد « جريجوار » بابن عمه ركنا وهنأه على شجاعته فى ذلك القرار :
ــ ماذا تريد ؟ .. ان خطأك الوحيد كان المجازفة بالمليون الذى اخذته ثمنا لحصتك ، فها هو ذا قد ذاب ، بينما مليونى أنا لا يزاله يطعمنى دون أن اعمل شيئا كما سيطعم أبناء احفادى ..

شهد غبش الفجر القطعان الذليلة وهى تسعى نحو المناجم فى انكسار ، واخذ «سوفارين» وهو يرقبهم يحصيهم ويعدهم كما يعد الجزار الماشية عند مدخل المجزر ..

وارتعد عندما رأى وسط هذا الخيط الزاحف صاحبه «اتيين» نفسه .. زعيم الاضراب !

تقدم منه واوقفه وتناوله من كتفه ودفعه بعيدا :

ـ عد ! .. الا تسمع ! .. عد من حيث أقبلت !

لكنه عصاه ، فتركه وتراجع ، وجمد فى العتمة وهو يتبعه ببصره حتى هبط مع الهابطين الى الاعماق السوداء ..

وكان يعرف انهم لن يجدوا فى بطن المنجم عملا ، لانه هو فى تلك الليلة انقض فى جوف الظلام على تلك الاعماق واحدث فيها تخريبا دقيقا ، كى يقتل فى النهاية هذا الوحش الشرير الفاغر الفوهة دائما الذى كم ابتلع من لحم البشر ..

نزل فى ذلك اليوم ثلاثمائة واثنان وعشرون عاملا ، أى ما يقاربه نصف عدد عمال ذلك المنجم القدماء كلهم ، وبعد ساعة من نزولهم وقعت الفاجعة ..

انهار بطن البئر وتدافع العمال فى رعب وسط مياه متدفقة كالطوفان وردم يتساقط فوق رءوسهم ، وتقطعت السبل بعدد قليل منهم عرف على الفور هول الكارثة وادرك ان القفص لن يتمكن الان من النزول فى بئر غمرته المياه .. وعندما أحصى الاسطوات مصابيح العمال الناجين وجدوا منها مئتين وخمسة وخمسين .. لكن عددا كبيرا من العمال الناجين من الانهيار اعترفوا بأن مصابيحهم سقطت من أيديهم فى لحظات الروع ، فحاولوا أن ينادوا بالاسماء ، لكن بعض الناجين كانوا قد فروا من المكان فى رعب . ولم يتفق أحد على عدد الرفاق الناقصين ..

لعلهم عشرون ، لعلهم اربعون ·· لكن كان هنـــاك على اية حال يقين واحد .. هناك زملاء فى اعماق المنجم ، وهذا صراخهم يتـــادى الى الاسماع واهنا من خلال حشرجات المياه والدعائم المتهاوية ، ينحنى من يريد ان يسمع عند فوهة البئر ..

وتعالى النواح عندما اقبلت جموع النسـاء ، فظهر لهن « نيجرل» وقال انه سينزل بنفسه فى سلة صغيرة ، ثم تكوم فعلا فى الســـلة المتأرجحة فى طرف السلك وهو ممسك مصباحه بيد وحبل الاشارة باليد الاخرى ، وتحركت البكرة على مهل واختفى المهندس فى البئر الذى لا تزال تتصاعد منه صرخات العمال المحاصرين ..

لم ير شيئا غير مألوف حتى بلغ مسافة ثلاثمائة متر وراى الكارثة التى ارعدته ، فكل دعامات البئر الخشبية تناثرت واندفع من ورائها رمل اصفر فى نعومة الدقيق وكتل كبيرة ومياه من باطن الارض تتدفق وتعلو ولا سبيل بعد تلك المسافة الى اقتحامها ··

وشد حبل الاشارة عندما راى جدار البئر على ارتفـــاع مائة متر فوقه وقد بدا يتشقق ويتحرك ويطلق جداول صغيرة .. هذا شىء . يمكن أن يتم بدون تخريب متعمد ! ·· ولن تمض ســــاعات حتى ينتهى البئر وينهار كله ويموت منجم « فورو » ميتته الكبرى ..

وكان المدير فى انتظاره عندما صعد ، فاسر فى أذنه أن الحادث متعمد وقال انه راى التخريب بنفسـه ، فوقف «هينبو» منسحقا من الرعب أمام هذه البـــالة المجنونة التى خاطر صاحبها المجهول بحيـــاته .. ترى من يكون ؟

وارتفع صراخ النساء يطلبن اعلان اسماء المفقودين ، على حين كان « سوفارين » يدخن سجائره مستعينا بها على الصبر ، دون أن تفلت عيناه شيئا مما يجرى امامه ..

ثم هزت الارض زلزلة ارتعد لها المنجـــم كله ، ثم زلزلة ثانية من انهيارات داخلية متعاقبة تزمجر اصداؤها زمجرة بركان يتحفز للثوران .. وفى اقل من عشر دقائق كانت قبة البئر تنهار امام الشعب الخاشع المذعور ، ثم توقف الانهيار الباطنى وسكنت الضجة الفظيمة وســاد سكون عظيم ..

وفجاة تقلصت الارض فى تشـنج أخير ابتلع المكنة العملاقة بعد أن

قاومت قليلا وهى تتحطم ، ثم زحفت ، ثم غاصت فى بطن الارض مع مابقى من المبانى ، ولم يبق واقفا فى مكانه غير المدخنة التى يبلغ طولها ثلاثين مترا ، لكنها كانت تترنح مثل صارى سفينة فى اعصار ..

وكانت آلاف العيون التى تتطلع من بعيد الى هذا المشهد الرهيب تتوقع ان تتفتت المدخنة وتتطاير هباء ، فاذا بها تغوص فجأة بطولها كان الارض شربتها ! ..

لقد انتهى ، انتهى الوحش الشريرالشرموما عاد ينفث لهاثه الضخم المتصل ! . .

ولاذ الناس بالفرار وهم يجارون بالخوف عنـــــدما راوا فى مكان الوحش الذى اكل حياتهم حفرة كأنها فوهة بركان خامد ، عمقهاخمسة عشر مترا وممتدة من الطريق الى القنال بعرض أربعين مترا على الاقل على حين امتد منها لسان فى الارض كالشق حتى بلغ خمارة«راسنير» وصدع واجهتها .. ثم انشقت ضفة القنال فتدفقت المياه فى وثبة جعلت من مكان المنجم المخسوف بحيرة موحلة ، كأنها واحدة من تلك البحيرات التى ترقد تحتها مدن ملعونة ..

هنا نهض « سوفارين » من مرصده وابتعد عن المنجم الذى نسفه دون أن يلقى نظرة الى الوراء ، وتضاءل ظله ثم ذاب فى ظل الليل وامتزج به ، ذاهبا الى المجهول ، الى كل مكان يوجـــد به ديناميت للنسف وللاستئصال وللابادة ..



— ٢٨ —

ومن باريس تلقى مدير الشركة الامر بتنظيم جهاز واسع للتجسس، وطرد الرجال الخطرين واحدا بعد واحد ، وبلا ضجة ، أولئك الذين يشتبه فى اشتراكهم فى نسف المنجم ..

اما مهندس الحكومة الخبير فقد قرر بعد تحقيق سريع أن الحادث طبيعى ، فآثرت الشركة أن تسكت وتقبل التأنيب ، واندفع «نيجرل» وجماعة من العمال لانقاذ المدفونين ..

وكانت الفكرة هى محاولة شق طريق من أعماق منجم «ريكيار» المهجور الى اعماق منجم « فورو» التى اطبقت على بعض الزملاء ، لعل هناك املا اخيرا فى انقاذهم ..

ومر يومان ، وفى اليوم الثالث كانوا قد أتموا عملا متصلا شقوا به نفقا ضيقا بلغ من ضيقه ألا يعمل فيه غير عامل واحد يستبدل به غيره كل ساعتين ، وكان الفحم المستخرج يوضع فى سلال تخرج من يد الى يد فى سلسلة طويلة من الرجال ..

وفى اليوم التاسع كانوا بعد جهود خارقة قد تقدموا اثنين وثلاثين مترا ، فسمعوا يدا تدق بطن الصخر وتعلن أنها هنا حية ! ..

وكل قلب الاقليم كان يخفق هناك ، معهم ، تحت الارض !

وكان « زخارى » احد عمال خمسة يعملون فى ذلك اليوم فى النفق، فكان يفلق الصخر بجنون وهو يتصور ان اخته «كاترين» لا تزال حية . . وكان يعمل بلا مصباح لان الاوامر المشددة كانت تقضى بعدم ايقاد المصباح فى اعماق النفق نظرا لتسرب الغازات وتكثفها ، لكنه — فى لهفته — فعلها ، وفى الحال انفجرت صاعقة من النار وخرجت من النفق كما لو كانت خارجة من فوهة مدفع ، والتهب الجو ، ومر هذا الاعصار بالعمال الاربعة وصعد فى البئر وانبثق فى ضوء الشمس قاذفا الصخور والانقاض ..

وبعد ثلاث ساعات من الجهود والمخاطر نزلت جماعة اخرى وكافحت

وصعدت بالضحايا الخمسة .. لم يكونوا موتى لكن حروقا وجروحا فظيعة كانت تغطى اجسامهم التى تفوح منها رائحة لحم مشوى .. كانوا يطلقون انينا متصلا متوسلين الى الآخرين من فرط العذاب ان يريحوهم ويجهزوا عليهم ..

والناس ، النساء والرجال ، كانوا يرتعدون

حتى ظهرت جثة «زخارى» .. كانت امه صامتة ، اماالآن وهوامامها فحمة سوداء مبهمة بلا راس فقد فاضت مواجعها .. !

وعندما وضعوا هذه البقايا الرهيبة فوق محفة ، مشت ارملة « ماهوى » وراءها بخطوات آلية وبلا دموع ..

كانت تحمل طفلتها الصغرى بين ذراعيهاوشعرها تجلده الرياح،فلما أوصلته الى امراته « فيلومين » تركته لهـا فى صمت وعادت بنفس الخطوة الى مكان الفاجعة ..

لقد شيعت ابنها ، وهى تعود الآن لتنتظر الابنة ! ..

الكن اياما ثلاثة أخرى مرت ولم يعد الذين عادوا الى النفق يسمعون تلك الدقات الخافتة التى كانت تستحثهم ..

هل ماتوا ؟ ..

هل هم كثيرون ؟ ..

فان كانوا احياء ما يزالون على قيد الحياة فما حالهم وهذا هو اليوم الثانى عشر منذ دفنوا ؟ ! ..

وكانت الحادثة الجديدة قد ضاعفت فضول البورجوازيين فى « مونتسو » فنظموا رحلة الى « ريكيار » المنكوبة اشتركت فيها« مدام جريجوار » وزوجها وابنتها « سيسل » و « مدام هينبو » وابنتا « دينولان » وابوهما .. وكان هدف هذه الجماعة ان تعرف من«نيجرل» حالة ممرات المنجم وحكاية المدفونين احياء ، قبل ان يتعشوا معا فى المساء ..

ومرت الجماعة بالمكان الذى كان يشغله منجم «فورو» فاخرجت «جان دينولان» كراستها ورسمت المنظر ، متحمسةلفظاعة«الموتيف».. بينما كانت اختها «لوسى» جالسة بالقرب منها فوق حطام عربة وهى تصف المنظر بانه « هائل » !

اما « سيسل » وامها فقد جاءتا معهما بصدقات لتوزيعها فى مساكن

انعمال ، تكملة للرحلة . . اذ كان موت «زخارى» المفجع وهو ينبش بطن الارض بحثا عن اخته قد ملأهما بالشفقة على تلك الاسرة التعسة التى كان البلد كله يتكلم عنها ٠٠ ولم يكن عطفهما على الاب « ماهوى » قاتل الجنود الذى وجب قتله كالذئب ، انما هى الام التى مست قلبهما هذه المرأة الشقية التى فقدت ابنها بعد زوجها والتى ربماكانت ابنتها الان جثة تحت الارض . . والجد عاجز على ما يقال ايضا ، وطفل اعرج وبنت ماتت من الجوع اثناء الاضراب . . ياله من بؤس !



— ٢٩ —

لم يكن فى بيت « ماهوى » احد فخرجت امراة « ليفاك »من البيت المجاور على دق الباب وقالت ان جارتها التى يقصدونها فى «ريكيار» وان مفتاح البيت معها لانها تعنى بالطفلين « لينور » و « هنرى » فى غياب امهما ، وان «الجد» موجود فى الداخل ..

وفتحت المراة الباب ، وما راوه اوقفهم على العتبة ..

كان الشيخ« الموت الطيب » مسمرا على كرسى وعيناه شاخصتان، امام الموقد البارد ، وحوله الصالة العارية الا من صــور الامبراطــور والامبراطورة ـ التى كانت شفتاها الورديتان تبتسمان بعطف رسمى ـ ولم يتحرك الرجل العجوز ، ولم تطرف عيناه فى الضوء الذى نشره الباب المفتوح ، وظل جامدا فى هيئته الغبية ، وعند قدميه طبق ملىء بالرماد كانه طبق قطة يوضع لها لتلقى فيه باقذارها ..

وقالت امراة « ليفاك » مراعاة لخاطر السيدات الانيقــات :

ــ لا تهتموا اذا كان قليل الادب ! ..

لكن انتفاضة هزت الشيخ وشهقة عظيمة صعدت من بطنه ثم بصق فى الطبق بصقة ثقيلة سوداء ، ثم استرد جموده كأن لم ير هؤلاءالذين دخلوا عليه ..

واضطربت الزائرات ومرافقوهن وغثيت الانفس من التقزز ، لكنهم حاولوا مع ذلك ان ينطقوا ببضع كلمات ودية ومشجعة ..

قال الاب السيد « جريجوار » فى تلطف كلفه جهدا كبيرا :

ــ يا رجلى الطيب ، هل انت مزكوم ؟ ..

فظلت العينان الشاخصتان الى الجدار فى مكانهما وساد مرة اخرى الصمت الثقيل ..

فاضافت الام « مدام جريجوار » محاولة جديدة يائسة :

ــ يجب ان يعملوا لك شرابا ساخنا ! ..

فظل « الموت الطيب » محتفظا بجموده الصامت العنيد ..

وغمغمت «سيـــل» الابنة المعبودة :

ـ قل لى يا بابا ! .. انه عاجز ! .. الم يقولوا لنا انه عاجز !..

ووضعت فوق المائدة كرنبا ولحما وزجاجتا نبيذ ، ثم أخرجت من ربطة ثانية حذاء كبيرا كانوا قد جاءوا به هدية للجد ، الذى لن يمشى ابدا ! .. فتلمظت امراة «ليفاك» على الحذاء وتمحكت :

ـ لن يشكر ! .. كمن يعطى نظارة لبطة ، لا مؤاخذة !

وحاولت ـ عندما رات كل هذا الرزق ـ أن تجرهم الى بيتها كى تستدر هناك شفقتهم عليها هى ايضا ، لكن «سيـــل» تخلفت وحدها مع «الموت الطيب» .. كانت تحاول ان تتذكر أين قابلت هذا الوجه الشاحب الموشوم بالفحم ، ثم فجأة رات فى ذاكرتها موجا من الشعب الصارخ يحيط بها واحست بدين باردتين تضغطان عنقها .. انههو!.. وتلقت الاكتشاف برعدة ، وتأملت يديه الملقاتين على ركبتيه ، يدى عامل قوتهما فى المعصمين .. قويتين رغم العمر ..

والشيخ ايضا كان يتيقظ شيئا فشيئا ويفحصها هو الآخر بهيئته البلهاء .. وفجأة صعد لهب الى وجنتيه وتقلص فمه فى حركةعصبية، ذلك الفم الذى كان يسيل منه خيط دقيق من لعاب أسود ..

وظل الاثنان أحدهما ازاء الاخر ، هى مزدهرة وسمينة وطازجة من طول الكسل والرغد ، وهو قعيد منتفخ الساقين بالماء ودميم دمامة شنيعة ، دمامة حيوان مجهد ، حطام وراثة مائة سنة من العمـــل والجوع ..

وبعد عشر دقائق عاد ابوها وامها مندهشين من تاخرها ، فاطلقا فى الحال صرخات فظيعة عنـــدما وجـداها ملقـــاة على الارض وهى مزرقة الوجـــه ، مخنوقة .. وكان فى عنقها بصمات حمراء لاصابع عمـــلاق ! ..

والشيخ كان ملقى الى جانبها دون أن يستطيع النهوض على قدميه الميتتين ، وكان ينظـر اليهما بهيئته الغبية وعينـــاه مفتـــوحتان ، شاخصتان ..

وقد استحالت معرفة وقائع الحادث بدقة .. لماذا اقتربت هى من كرسيه ، وكيف استطاع وهو مسمر فى كرسيه ان يأخذ بعنقها ؟

واقتنع الجميع بان حالة جنون مفاجىء أمام عنق البنت الابيض هى

سبب الحادث ، كانه سم حقد صعد من اعماق الرجل الى جمجمته.. انها جريمة ابله بلا وعى !

وركع الاب والام يبكيان تلك المعبودة الصغيرة الميتة ويبكيان معها انهيار حياتهما .. ونظرت امراة «ليفاك» الى الحذاء فخافت عليه ان يسرقه احد من ذلك الجمهور الذى اقبل يتدافع ، ثم انه لم يبـــق فى بيت «ماهوى» رجل يلبســه ! .. وحملت الحذاء فى خفة ، وبدا لها مطابقا كل المطابقة لقدمى «بوتلو» صديقها !



— ٣٠ —

عندما وقعت الواقعة فى بطن الارض وبدا الانهيار كان معهم خيل محبوسة فى الاسطبل ، فاخذوا يصرخون واخذت الخيل تصهل ..

وكان هناك الحصان « معركة » فلما راى نذير الموت انطلق وحده صارخا وغاب فى أعماق احد الممرات ، فتبعه الرجال وهم يفكرون مثله فى الخروج من بطن الارض عن طريق « ريكيار » اذا كان الممر القديم بين المنجمين لايزال مفتوحا .. وكانوا عشرين ومعهم بعض المصابيح، لكنهم اختلفوا عند مفرق طرق فذهب « شافال » واثنان فى الممر الايمن واستمر الآخرون يجرون وراء الاب « موك » وفى آخرهم « اتيين » الذى تعطله « كاترين » وقد شلها الاعياء والخوف .. ثم حملها رغم مقاومتها ، فسبقهما الاخرون بخمسين مترا ، وذا بالممر ينسد فجاة بكتلة ضخمة منهارة فصلتها عن الاخرين .. وعادا فضلا الطريق وحدهما وانحصر أملهما الوحيد فى الصعود الى طبقات عليا تعصمهما من الماء الطامى ، ولعل نجدة تاتيهما هناك اذا انحسر الماء !.

وكان الماء قد بلغ صدريهما عندما اقبلت عليهما موجة عاصفةمزبدة حاملة عملاقا يصارع المجرى الضيق ليلحق بهما .. انه الحصان « معركة » الذى كان قد ركض فى الممرات السوداء التى يعرف طريقه خلالها فى تلك المدينة السفلى التىسكنها منذاحدى عشرة سنة،وكانت عيناه تريان بوضوح فى أعماق الليل الذى عاش فيه ؛ فظل يركض ويركض ويختار طريقه الى رؤيا شبابه البعيد ، الى الطاحونة التى ولد فيها على شاطىء النهر ، الى الذكرى الغامضة للشمس المتوقدة فى الفضاء كانها مصباح كبير ..

كان يريد ان يعيش ، وكانت ذاكرة الحيوان تتيقظ ، والرغبة فى تنفس هواء السهول مرة أخرى كانت تدفعه لاكتشاف مخرج الى السماء الدافئة فى النور .. لن يقتله هذا المنجم بعد ان اعماه ؟ .
وعندما راياه مقبلا وراءهما كان يتمزق بين الصخور الضائقة بجسمه

الكبير ، وكان قد سقط فانكسرت اماميتاه ، لكنه تقدم بجهد كبير اخير بضعة امتار ثم انحشر جنباه فظل مقيدا بالارض .. وتطاول راسه الدامى باحثا عن مخرج ، بعينيه الكبيرتين المضطربتين ، وكان الماء يغطيه بسرعة ، فاخذ يصهل فى انين متصل فظيع حتى انتهى نزعه المرعب بشهقة اخيرة ساد بعدها سكون عظيم ..

وتقدما بعد ذلك يصعدان وهما يسمعان هدير الانهيارات المستمرة فى الاعماق ويرقبان ارتفاع الماء الخارق فى فزع ..

والبنت خلال هذا الهروب من الموت تكرر بلا توقف ولا تغيير هذه الكلمات :

ـ لا اريد ان اموت ! . لا اريد ان اموت ! ..

ومع مرور الوقت بدا الجوع يعضهما ، وفقدا الاحساس بالزمن فى قبضة الرعب ..

وعندما بلغا آخر مايسعهما صعودا تادى اليهما من امامهما ضوء مصباح اذهلهما وصرخ فيهما بحنق صوت رجل :

ـ مغفلون مثلى ..

وكان ذلك « شافال » محصورا امام ردم وجريح الذراع ، فلما عرفهما ضحك ضحكة سرور سىء :

ـ اهذه انت يا « كاترين » ! . لقد تبعت رجلك وتخليت عنى عند مفرق الطرق ، فالان نرقصها معا نحن الثلاثة !

والطريق مسدود من اعلى ومن اسفل ، ولا امل لهؤلاء الثلاثة فى النجاة الا ان يدقوا على الصخور بايديهم بنداء عمال المناجم عندما يعلنون عن وجودهم فى حالات الخطر ..

وايام تمر ، والمحبس الضيق قد تسمم بالتنفس وبقذارات الحاجة الطبيعية ، التى كانت تتم امام بعضهم البعض ..

وكانما استبطا الرجلان الموت فاستعجلا أن يذهب احدهما من الوجود فى الحال ، فاشتبكا بسبب البنت وانتزع « اتيين » حجرا مشطوفا من الجدار واهوى به على جمجمة « شافال » فسقط على وجهه وراسه مشقوق ومخه يتناثر على سقف الممر .. ثم جر الجثة والقى بها الى الماء الصاعد كى ينزعها من الحيز الضيق الذى بقى له هو ليعيش فيه مع تلك البنت التى اندفعت معه فى حمى ارادة الحياة

الفريزية ، فاخذا يحفران فى جدار الممر الفحمى ، هو بخطاف المصباح الخامد وهى باظافرها ..

واستطاعا ان يحفرا فى أعلا الجدار مايشبه مقعدا مرتفعا ،فاعتلياه ودليا ارجلهما وهما منحنيان يجبرهما السقف على خفض راسيهما . فصار الماء الان لايمس منهما غير الاقدام .. وتتابعت الساعات فى ظلام لايمكنهما من رؤية الموت وهو مقبل !

وفجاة خيل اليهما انهما يسمعان ثلاث دقات ترن فى أصلاب الفحم، بعيدة ، ضعيفة ..

وردا الاشارة فى جنون ، وتسمعا بان الصق كل منهما اذنيه بالجدار ، فميزا من جديد ثلاث دقات بعيدة وضعيفة ..

انها النجاة ! .

وتكرر الدق من هنا وهناك ، فبكيا وهما يتبادلان القبلات .. هؤلاء هم الرفاق قد جاءوا ! . انهم فى الطريق ، قادمين من «ريكيار» .. يالها من مسافة ! . كم يوما اخذوها فى شق تلك المسافة فى قلب كتلة الفحم الصلبة ؟ .. لا ! لن يصلوا فى الوقت المناسب ! . واستبد بهما دوار الجوع وعذاب العنق الملتوى تحت السقف الخفيض ، واكلا قطع الخشب المتعفنة ، ومن وقت الى اخر كانا ينحنيان فيشربان من الماء الذى تجاوز الركب ، فى راحة اليد ..

وفى اليوم السابع كانت هى منحنية لتشرب عندما صدم يدها جسم عائم امامها ، فتحسسه هو بيده دون أن يعرف حقيقته ، لكنها اطلقت فجاة صرخة فظيعة :

ــ انه هو ! . هو ؟ . لقد لمست شاربه ! .

كانت جثة « شافال » هى التى هناك ، فبصقت « كاترين » الماء من فمها فى غثيان ، كانه دم ، كان كل هذا الماء الذى امامها فى الظلام دم هذا الرجل ..

وركل هو الجثة فابتعدت ؟ .

لكنهما لم يلبثا ان احسا بها تصطدم بسيقانهما مرة اخرى .. ثم مرة ثالثة .. فاضطرا ان يتركاه .. لم يكن يريد أن يذهب ! . كان يريد ان يبقى معهما ! .

وفى اليوم التالى كانا يزيحان الجثة قليلا قبل أن .. يشربا !

كم هو عنيد فى غيرته ! .
سيكون هنا حتى النهاية ، حتى وهو ميت ، كى يفرق بينهما !.

ويوم اخر ، ويوم اخر ، ودنت اصوات الرفاق القادمين فى قلب الصخر وعلت دقاتهم ، وتلك الجثة الملتصقة بهما لابد انها الان منتفخة ومتعفنة ومخضرة .. لكنهما كانا فى شبه غيبوبة واضعف من ان يردا على الرفاق لكى يهتدوا الى مكانهما ..

لم يعد فى ضعفه يهمه ان ياتوا أولا ياتوا ، وكان فى حالة من البلة نسى معها الفرج القريب ..

وضمته فضمها وهما على تلك الحال من فقدان الاحساس السليم بالواقع ، وكانت ليلة زفافهما فى هذه الغمرة من اليأس الاخير ، فى هذا القبر ، على فراش الوحل هذا ؟ ..

وماتت فظلت فى حجره يومين !! .

ثم سمع اصواتا وتدحرجت عند قدميه صخور وراى مصباحا . فبكى .. لقد اقبلوا متاخرين ؟

وحملوه وسقوه ملاعق من حساء ، ومرت مدة قبل ان يعرف من بين منقذيه بعض الوجوه الغارقة فى حزن واسع ، فى بؤس الاجيال ؛ اقصى ماتسقط فيه الحياة من الم !

وفى نور الشمس تهاوت امراة « ماهوى » فوق جثة ابنتها وبثت الكون شكاواها ، على حين كانت جثث عديدة مصطفة على الارض . والنساء حولها مجنونات يمزقن اثوابهن ويخدشن وجوههن ..

وعندما أخرجوه آخر الامر بعد ان عودوه على النور وغذوه قليلا ظهر « اتيين » للناس شبحا ناحلا ابيض الشعر ، فكان الناس يتنحون عن طريقه فى شىء من الاكبار والروع

وعندما بدا يمشى على الارض مرة اخرى خيل اليه انه يسمع تحت قدميه ضربات معاول الفحامين فى بطن الارض ، عميقة ، عنيدة ،دائبة .. كلهم هنا تحت القمح وتحت الشجيرات وتحت البنجر وفى كل مكان .. لم يموتوا ابدا ، وهذه شمس ابريل فى قلب السماء تشع فى مجدها، باعثة الحرارة فى ارض تلد بلا توقف .. ومن البطن المغذى كانت تنبثق الحياة وتتفتح البراعم عن ثمار واوراق خضراء ، وتنتفض الحقول بعملية الانبات والنمو ، ومن كل مكان كانت تتفتح بذور

وتمدد وتشق التربة طالعة للدفء والنور .. وصوت ضربات المعاول في الاعماق السوداء كان يزداد في كل خطوة وضوحا وعلوا ؛ كما لو كان الضاربون يقتربون من سطح الارض ، وفي اشعة الشمس المشرقة كان السهل كله مليئا بهذا الهدير وحده ، في صباح الشباب هذا . وكان رجال جدد ينبتون على مهل لحصاد القرن المقبل ..

انتهت



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى



المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الآداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر « زولا » من أشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١

هذه الرواية

يعتبر الكثيرون من النقاد رواية « جرمينال » قمة أعمال الروائى العالمى « اميل زولا » ..

فلأول مرة فى تاريخ الادب ـ ومن تصوير كاتب جمهورى لا اشتراكى ، فقد كان « زولا » فى صميمه جمهوريا معتدلا ـ تصدر قصة ليس البطل فيها فردا أو أفرادا وانما بطل جماعى هو جمهور عمال منجم ليصور المؤلف ـ بقلمه الذى لا يجارى ـ الظلم الواقع عليهم وعلى أمثالهم من طبقة العاملين ، وليسم بالحديد المحمى مجتمعه الذى يسمح بمثل هذا الظلم ، مما يجعل ((جرمينال)) عملا فريدا فى الادب الفرنسى كما أنه فريد فى انتاج «زولا» نفسه ..

